جلجلة الدم والنار

☆

... إدفعْ ... ادفع ...

دونك المضيق فاقتحمه .

ويحرّك الفارسُ العربي الاسمر مهمازه ويرتمي صدرُ جواده في صدر الظلمة .. خبب وعجيلى ، امجاج واهماج .. الى اين ، الى اين ايها الفارس المبكر ؟ الى اين ؟!

الى هنا .. هنالك ، في القمة ، في بيوتنا ، في صوامع القمة .

وتلوّح الصبية باجفان الشوق والتطلع ثم تلجُ العتبة على عجل ، وتطوّف ، ثم ترفع الى عين شفتيها ، في الانحناء المقدس ، عينين ، بعد ، صغيرتين .

... اماه ... اماه ... وانعمةَ امِكَ . وَا لثارات امك وامي ..

وتوصد الباب على مهل وتعدو . ثم نسمع في الرمل البعيد وقع الحوافر ووقع القلوب

***

... لكِ الطريق .. لقد سبقكِ الفارس الاشعث الاغبر ، ها هو هناك ، هناك ، في التحفز يرجم مسارب العدو بحوافر جواده الثائر .

.. على الرسل .. وافارساه ..

وتسبل حصانها برقاً لمحاً .

يا هلا .. يا هلا بالزين ..

ويجريان كأنهما على الليل طيفـان اطلقتهما الشمس في خواطر البصر ..

... « اذهبي ، انت ، من هنا ، واذهب ، انا من هنا . ألا ، ألا انظري الموت ، يا ابنة العم ، كيف يتململ في الحصون والجفون ، في هذه الواحات الغريبة ، يا ألف هلا ، .. الا ادفع حصانك ، انت ، من هنا ، لادفعه انا من هنا ، من هذا المضيق ، في وجه الموت الضيق ...

وتلوح الصبية باجفان الثأر والتطلع .

« قل في العودة ، اذا عدت ، لوحيدنا النائم على النغوة ورنين القبلة ، ان امك ما ودعتك إلا لتمزق صدرها القوي على فولاذ الحصون الداجية الواهية » .

***

وتحرك الفـارسان ، واحدٌ ، على الشوق ، الى معاقل المغرب . واوحدٌ على الشوق الى مباسط الجنوب ، وافيـاء العباءات العربية تنبسط ، في البعيد البعيد ، على افياء العبـاءات العربية في القريب القريب ، وانسان العين يزهو على البطولة والتفدية في انسان العين ..

موكب يحدو الزمان افتخاراً وازدهاراً .

وجلجل صوت الدم على زقزقة الموت وصلصلة الجماجم .

وقال حصن لحصن : « من هي هذه الاعرابية المجنونة التي تحطم عـلى الواح ضلوعها العالية صفائح الابراج ، وتمزق على حبات اسنانها اسلاك الردى الشائكة ، وتقذف بحصانها في الدخان واللهيب كأنه من اتون اللهيب لهبة ، او من همة القدر وثبة ، واية وثبة ؟! » .

***

وجلجل في الاعماق والآفاق صوت الدم ونادت الصوامعُ الشامخة الصوامعَ الشامخة :

يا لبشراي .. يالهلا بالزين .. ويتساقط شبح الليل على تجاويف الابراج ويسكت الحصن المدجى سكتته ، وينحدر وجه الموت في معمعة الدم على قدسية الحقد ، وبركات النقمة ، وبخور التضحية .

لم تعد الفارسة ، بعد ، لان الارض التي حصنهـا المحصن الاثم ، أخو التيه والتوه ، بصخرة الظلم والاثم مديدة بعيدة ، ولان الامل المشرق الذي نسجه الناسج الماهر ، بنول الخالق والحق ، مديد بعيد .

***

.. أين امي ؟! ..

ويستيقظ الصبي حائراً مشتاقاً ..

« .. هي هنا ، يا بني ، هنا ، حول المقدس ، عند الجيران تزرع في ارضنا دماً وناراً .. واشوقنا الى شجرة الدم والنار »

— جدي .. لمن الدم ؟! . — لهذا الرداء المخملي الذي سأخيطه لك يوم العيد .

— والنار جدي ؟! — لهاتين المقلتين العربيتين اللتين تقبلني بهما في الصبح على رغم خشونة شاربيّ وذقني .

— جدي .. لقد قبلتني فيهما قبلك امي .. وا طيبَ امي .. امـا ابي فلم يودعني .. ويبكي الصبي دمعة وانة .

— بلى ، يا بني ، لقد ودعك وانت نائم حالم ، وقبّلك هنا ، هنا ، مراراً ، على السكت ، في مطلع جبهتك ..

كان يبتسم ، يبتسم جداً ، لشعـاع النار في مفرقك ، وكان يصلي ، يصلي جداً ، لقدسية الدم في خدك ...

واغفى الصبي على رنين الحكاية ..

***

جلجلة ، وفي مدينتنا العظيمة شيدت الجلجلة العظيمة على الدم والنار .

الياس خليل زخريا

العارف الروسي المعاصر : نقولا برديائف

بقلم الدكتور عبد الرحمن بدوي
مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الاول

☆

في الحاضر ماض يصرخ في طلب الحياة على لسان نفر خارق يشتف من الينبوع الاصيل ، وان استقى مـن تراب الواقع الحي ، فتراه يتطاول بروحه الى الأعصار الاولى حتى يعيش في ايماض الوحي العنصري ، ويخيل اليك ان الطبيعة نفسها قد مالأته على هذا التوجيه فأفاضت عليه من القسمات البدنية ما يلبّس على الناس تجسده لتلك القيم الاولية و لكيلا يرد العصر منه فلا يصبح متوحداً او ظاهرة غريبة ادعى الى حب الاستطلاع المشدوه منه الى التقدير المشارك والاتباع السخي ، تشاهده يشارك في التيارات الفكرية البارزة العصرية فيحيط بدقائقها ويغوص على حقائقها ، وقد يمن في التمويه حتى ليخيل الى الناظر العـابر ، بل و الناظر المتفطن ، انه من اهلها ، والواقع انه ما تظاهر بالمشاركة فيها الا ليبدو أقدر على الانقضاض عليها و الانتقاص من أطرافها . لكن انزع الطلاء ، ومزق الحجب ، تتكشف لك حقيقة عارية يذهل من هولها المفتونون ، بيد ان البراعة كل البراعة في نزع الطلاء وتمزيق الحجب ، لانها من الدقة واللباقة بحيث لا تنقاد الا لليد الصنّاع . وهيهات ان تظفر بها الا بعد صراحة جارحة وقحة فيها استعلاء نبيل .

وتلك « الاولية » تلبس رداءين : صفاء الدين ، واصـالة الحكمة . وكأن اصحابها يعبرون مباشرة عن الظاهرة « الاولية » بالمعنى الذي لهذا التعبير عند جيته[1] — ، وان كانوا في الواقع لا يتعلقون الا بجانب منها محدود ، يصورون مشاكل الواقع وفقاً له ، ويلونون نظراتهم في الاحياء والاشياء والمذاهب بألوانه . وتظاهرهم بالتسليم ببعض النواحي في المذاهب المعارضة انما هو احتيال لينطلي عليك إغراؤهم المعسول بالترضي الزائف .

ولعل أبرز من يمثلون هذا الاتجاه في هذا العصر شخصيتـان ممتازتان لهما كبير الاثر في التوجيه الروحي المعاصر ، أولاهما : هرمن كيزرلنج ، الحكيم الشمالي صـاحب مدرسة الحكمة ، و المارد الاشقر الذي انطوى على القوى الارضية في كلمة ارتوت من أمواه الكنج المقدسة ، وطوفت على الارض في نزعة عالميه تمتد أصولها الى غوامض الاسرار الكونية ، وقد توفي في نيسان سنة ١٩٤٦ ، وسنعقد للحديث عنه فصلاً طويلاً خاصاً . اما الآخر — وهو موضوع حديثنا اليوم — فهو نقولا برديائف ، العارف الروسي الاكبر .

عريض الجبهة ، مبسوط المحيّا ، في نظراته رقة ، وفيها مكر أليف ، وفي قسماته قوة ، وان اتسمت خطوطها بالصفاء المتفتح على الآفاق الفسيحة ، ورأس جميل يشع منه نور النبوة في تشابه غريب ورؤوس الانبياء في الرسم الجداري الذي صنعه ميكلانجلو في القبة السكستية ، وقد أحاط به شعر جفال زاد من مهابته وروعة طلعته .

ولد في سنة ١٨٧٤ بمدينة كييف مـن اسرة نبيلة تضرب أعراقها في التقاليد الحربية الروسية الاثيلة ، بيد ان جدته كانت فرنسية كاثوليكية هاجرت الى روسيا ، ثم أرسل — شأن لداته — الى المدرسة الحربية في كييف فلم يطب له بها مقـام ، فالتحق بالجامعة حيث درس العلوم الطبيعية والقانون . وفي كييف — ذاك البلد العتيق الذي كان العاصمة الروحية زمناً طويلاً فأبدعت الاساطير الرائعة الـتي تدور حول الامير فلاديمير (سنة ١٠٠٠ ميلادية) ومنضدته المستديرة — عرف شخصيتين ممتازتين سيكون مصيرهما معه في المنفى بباريس ، هما سرج بولجاكوف الاستاذ بالمعهد الارثوذكسي بباريس ، وليون شستوف صاحب الابحاث العميقة عن كيركجورد وتولستوي ودوستويفسكي المتوفي منذ عهد قليل . وشارك في حركات الطلاب الاشتراكية الديمقراطية فسعى الى فولوغدا بشمال روسيا ، وكان من رفقائه في النفي سافنكوف الارهابي الشهير ، ولونتشرسكي الذي صار له في دولة السوفييت مكانة ظاهرة

---

(١) راجع كتابينا « اشبنجلر » ، الفصل الثاني و « الديوان الشرقي » التصدير تحت عنوان « جيته والدين » القاهرة سنة ١٩٤٦ .

فاصبح مندوب الشعب في التعليم العام .

ولقد كانت روسيا في ذلك الحين تجعل قبلتها الروحية الاولى المانيا ، فكان للفكر الالماني، ممثلًا في مختلف رجاله، أخطر الاثر في التكوين الروحي للطبقة المعروفة باسم « الانتلجنسيا » ، وهي طبقة لا تعني بالضرورة رجال الفكر ، بل تعني كل المشاركين بحماسة في الشئون السياسية ، سواء أكانوا من اهل الفكر والثقافة ام لم يكونوا . وكان لهيجل – على وجه التخصيص – بالغ النفوذ هو وأتباعه ، خصوصاً اصحاب الميسرة من مدرسته وعلى رأسهم فويرباخ واشتروس وماركس . ولعل هؤلاء الشباب الروس لم يدفعوا ماركس آنذاك الا بوصفه هيجلياً فحسب، وما حماستهم للماركسية الا حماسة للهيجلية كما فهمها ماركس ، او بالاحرى كما افسد فهمها ماركس . لهذا كنت ترى الصفوة المثقفة من الروس ظمأى الى الثقافة الالمانية العميقة ، ولا ترى لها كعبة روحية تقصدها غير برلين او هيدلبرج او غيرها من مدن الجامعات في المانيا، فلا تكاد تسنح لها فرصة الذهاب حتى تبادر باغتنامها ، لدرجة انك لاتكاد تذكر شخصية روسية على جانب من التفوق العقلي لم تدرس في المانيا او تزرها فتطيل الزيارة تزوداً من ثقافتها الرفيعة .

لهذا فان نقولا بريادئف لم يكد يطلق سراحه من منفاه في فولوقطا حتى ارتحل الى المانيا للدراسة في جامعاتها سنة ١٩٠٣ وبخاصة في هيدلبرج ذات العراقه الموغلة في تقاليد الحكمة والمعرفة الانسانية ، وهنا ، وفي أحضان الغابة السوداء بما فيها من أسرار موحية وكوامن روحية ، راح يستعيد نفسه ويتلمس سبيله الحقة . وسبيله الحقة ان يكتشف ذاته الاولية ، ذاته الروسية بما تنطوي عليه من خوارق وغموض وتصرف ونزعات لا معقولة ونزوات فيها خليط من الافكار الشاذة حتى المرض، المتناقضة حتى القلق ، روح الاستيس المستسلم لغوامض الاسرار الكونية ، النفس المريضة وفي مرضها سر شفائها . لقد كان خاضعاً إبان مقامه في كييف لتأثير كارل ماركس وفريدرش نيتشه وكنت وابسن . ولكن هؤلاء ما كانوا في الواقع الا بضاعة مزجاة الى روسيا في غير انسجام واضح مع روحها الحقيقية التي أتينا على وصفها، لهذا تأثر بهم من تأثر لا بروحه، بل بعقله . فما أبعد الفارق بين روح هؤلاء الروح، الشمالية المتوثبة الى اللانهائي ، وبين روحها هي ، روح السهل المذعن لقوة غامضة ! .

أجل ، كان الاعجاب شاملًا كاملًا بهؤلاء في روسيا ، لكن من جانب ذوي النزعة الغربية ، لا من جانب الممثلين الحقيقيين للروح الروسية ، فهؤلاء الاخيرون نبذوهم على خلاف ، وانطووا على ذواتهم يفتشون في أثاويها – التي رانت عليها ألوان الطلاء الزائف الذي فرضه بطرس الاكبر على روسيا فرضاً – عن روحهم الاصيلة .

هنالك نأى برديائف جانباً عن اولئك الهداة القدماء : ماركس ونيتشه وكنت ، وكان عليه ان ينشد هداة جديدين ؛ وكان عليه كذلك ان يبحث عنهم بين الالمان ، أليست الثقافة الالمانية هي التي لا معدل عنها عند كل روسي مثقف ؟ ووجد اولئك الهداة في اشخاص يمكن ان يكون بينهم وبين النزعة الصوفية الروسية آصرة رحم ، على رأسهم : يعقوب[1] بيمه ، الصوفي الالماني المتلفع بالرموز الكونية « والسر الاكبر » ، ثم شلنج ، الفيلسوف الرومنتيكي الضارب في فيافي الصوفية العقلية .

وانتهت حياة الطلب وبدأت حياة الكتابة ، وهو كان قد نشر من قبل في سنة ١٩٠٠ دراسة عن « لانجه والفلسفة النقدية في صلتها بالاشتراكية » ، ففقد لانجه ، صاحب تاريخ المادية ، على اساس مذهب المثالية ، ثم نشر في السنة التالية كتابه الاول عن « الذاتية والفردية في الفلسفة الجمانية » محاولاً فيه ان يجد مركباً من الماركسية والمثالية الكانتية ضد مذهب الوصفية . وكتب دراسة في كتاب توفر عليه عديدون سنة ١٩٠٤ بعنوان « مشاكل المثالية » ، وعنوان هذه الدراسة « من وجهة نظر سرمدية » ، تتبدى فيها لاول مرة نوازعه الجديدة ، اذ عرض فيها تطور المادية التاريخية نحو مثالية مسيحية . وكان اصحاب هذا الكتاب يرمون من ورائه الى الثورة على فريق لينين والثوريين الماركسيين ، مستهدفين مع ذلك الى اقامة العدل الاجتماعي والديمقراطية الصحيحة في ثورة على القيصرية ، وهاجموا مرة اخرى اولئك وهؤلاء في كتاب ظهر سنة ١٩٠٩ بعنوان « مراحل » ، معنيين خصوصاً بالهجوم على النزعة الالحادية المتغلغلة في طبقة « الانتلجنسيا » .

فصار بردیائف كاتباً حراً يدعو الى العدل الاجتماعي الممزوج بالروح المسيحية . فكتب « الوعي الديني الجديد والمجتمع » و « الازمة الروحية في طبقة الانتلجنسيا » ، وفي أثناء مقامه بايطاليا سنة ١٩١١ ألف كتابه بعنوان « معنى الفعل الخالق » وقد نشر في موسكو سنة ١٩١٦ . لكن على الرغم من نزعته الدينية هذه فقد وقع في عراك مع « المجمع المقدس » ، فهاجمه في مقال بعنوان « خانق الروح » وهو يقصد به المجمع المقدس ، الذي سرعان ما رفع امر بردیائف للقضاء ، لكن الحرب الكبرى الاولى والثورة التي تلتها أطاحت بهذه القضية .

(١) راجع ما كتبناه عنه في مقدمة « أندين » القاهرة سنة ١٩٦٦ .

وفي سنة ١٩١٧ قامت الثورة البلشفية الكبرى في روسيا ، فالتزم خلالها موقفاً حراً : فلا هو الى فريق الثوار ، لانه كان يعلم ما تنتهي اليه هذه الثورة من مصادرة لكل حرية ، ولا الى فريق الروس البيض لان هؤلاء كانوا قد افسدوا الامور في روسيا من قبل الى ابعد حد فاستعبدوا الاحياء والاشياء . ثم عين في سنة ١٩٢٠ استاذاً في كلية الفيلولوجيا والتاريخ بموسكو ، وهنالك الف عدة كتب منها عن « ليونتيف » Leontieff وعن « معنى التاريخ » وعن « نظرة دوستيفسكي في الحياة والوجود » ، لكنه لم يستطع نشرها الا في الخارج خصوصاً في المانيا .

لكن انى له ان يعيش في العهد الجديد ! ضاق بالعهد الجديد وضاق به هذا العهد الجديد فاعتقله في السجن مرتين ثم نفاه اخيراً سنة ١٩٢٢ عن روسيا نهائياً ، فغادرها الى برلين حيث نظم اكاديميته الدينية بمعاونة جمعية الشبان المسيحية الامريكية ، وبقي بها ثلاث سنوات نشر في خلالها كتابه المعروف « عصور وسطى جديدة » . ثم غادر برلين الى باريس سنة ١٩٢٥ فأنشأ فيها مجلة روسية بعنوان « السبيل » ، وتفرغ لكتابة مؤلفاته الرئيسية : «فلسفة الروح الحرة» (سنة ١٩٢٧)، «مصير الانسان» (سنة ١٩٣١)، « الانا وعالم الموضوعات » (سنة ١٩٣٤)، « مصير الانسان في العالم المعاصر» (سنة ١٩٣٤) «الروح والواقع» (سنة ١٩٣٧)، «الشيوعية الروسية : ينابيعها ومعناها » (سنة ١٩٣٧)، ولا يزال حتى اليوم يحيا في باريس مشاركاً في بعض المؤتمرات الفكرية العالمية ، مرموقاً في الوسط الفكري بفرنسا ، ومنها في سائر العالم .

وبرديائف قد استأنف الحركة القوية التي بدأت في روسيا في النصف الثاني من القرن الماضي وكان من رجالها تشادائف Tchaadaeff وايفان كريئفسكي Ivan Kirêevski والكسيس خومياكوف Alexis Khomiakoff ، ثم على وجه التخصيص فلاديمر سولوفيف .

وكان سعي هؤلاء متجهاً الى تجديد النزعة الدينية في روسيا لما ان رأوا الفارق بين خصب الكنيسة الكاثوليكية وفقر الكنيسة الشرقية من حيث التطور الروحي . فهذه الاخيرة لا تكاد تملك منه الا الليتورجيا وعبادة الايقونات ، فكلتاهما تميز الارثوذكسية الروسية من الكاثوليكية اللاتينية ، ولا يزال لتلك الليتورجيا (المراسم والطقوس والاناشيد الخ) كل جمالها لكن هذا لا ينهض على قدميه اذا قورن بالتطور الفكري الكبير الذي مرت به الكنيسة الغربية خصوصاً في العصور الوسطى حيث تكونت العقيدة في صورتها العقلية المكتملة وشيدت كاتدرائيات فكرية لا تقل في سموقها ودقتها عن الكاتدرائيات القوطية الفنية ، فنية اولئك النفر الى واجبهم في سبيل تجديد الحياة الروحانية الدينية في تلك الكنيسة الشرقية ، ورأوا انها كانت الاجدر بالسبق في هذا المضمار « لان الشمس تشرق في الشرق ، ومن الشرق يشع كل نور ديني .. فالشرق بلد الوحي ، والغرب بلد الحضارة . الشرق اقرب الى ينابيع نشوء كل حياة ، انه ملكوت التكوين[1] . » والشرق الذي يقصده هؤلاء هنا هو الشرق بالنسبة الى أوربا ، اي روسيا ، فتصوروا ان لها رسالة دينية خاصة هي كلمتها الاخيرة التي ستكون فيها النجاة لاوربا ، ولن تكون دينية الا في روحها ، اما في انطباقها فستشمل كل مرافق الحياة وبخاصة الاجتماعية . ومن ثم تبلورت الخصومة بين المستغربين والمتشرقين : من يتجهون الى اوربا الغربية ، ومن ينطوون على نفوسهم في اسرار اوربا الشرقية ، اعني الروسية . واستعرت بكل قواها بين الفريقين على النحو الذي اوضحناه في موضع آخر[2] على نحو لا نحتاج لبعده هنا الى فضل بيان . انما نشير الى بعض المعاني العامة التي انطوى تحت لوائها عمل هؤلاء .

وأولها فكرة الحكمة التي اخذها سولوفيف عن المذاهب المستورة في القبالة Cabale ، ووفقاً لتمجيدها في سفر الحكمة او سفر يسوع بن شيراخ في « العهد القديم » من الكتاب المقدس . ولكنه يحيلها الى المسيحية بقوله ان الحكمة هي السيدة العذراء ، والحكمة هي الوحدة في الله ، وهي ايضاً تجليه المثالي وطبيعته السرمدية .

ثم فكرة الانسان الاله ، اي ان الغاية التي يجب ان يسعى اليها الانسان هي التشبه بالاله ، على اساس الكلمة المشهورة التي قالها اثناسيوس : «صار الله انساناً كيما يصير الانسان إلهاً .» وهم في هذا الاتجاه يشبهون الى حد بعيد بعض الصوفية المسلمين ، خصوصاً ابن عربي ومدرسته .

ثم لعبت الافكار الاخروية دوراً خطيراً في توجيههم ، وكمقدمة لها عنوا بفكرة المصير في الدنيا . ومن بين من أولوا هذه الناحية جل اهتمامهم نقولا فيودورف Feodoroff الذي رأى ان المهمة الكبرى الملقاة على عاتق المجتمع الانساني هي الكفاح ضد الموت ، لان الموت علة العلل وشر الشرور ، والبعث هو الانتصار النهائي على الموت بفضل اللطف الالهي والجهد الانساني معاً . ثم حمل على النزعة الآلية في هذا العصر ، فرأى في الآلة رمزاً على سلب الانسان انسانيته . كذلك عني بالاتجاه نفسه روزانوف (١٨٥٩ – ١٩١٨) Rosanoff ، لكنه وجهه في اتجاه المشكلة الجنسية ، فأراد

١) بردیائف : « الفكرة الدينية الروسية » في « الروح الروسية » ص ٩ .
(٢) راجع كتابنا « اشبنجلر » ، الفصل الثاني عند نهايته .

اصلاح الغريزة الجنسية والاسرة في اتجاه ينزع الى تقديس الجانب الحسي ، الى حد انه دعا الى قضاء شهر العسل في الكنيسة ايضاً !.

في اثر هؤلاء جاء برديائف مزوداً بكل ثقافة العصر ، فجنح ناحية الفكر الفلسفي ، متأثراً خصوصاً بتيارين في الفكر الالماني المعاصر : فلسفة الحضارة ، ثم المذهب الوجودي . لكنه صبغ كليهما بروحه الدينية الروسية الصوفية . ففي فلسفة الحضارة رأى ان التاريخ الحديث هو تاريخ عظمة الاوهام ذات النزعة الانسانية وانحلالها ، بمعنى ان مأساة هذا العصر الحديث تنحصر في ان الانسان قد شاء ان يستقل بجانبه الانساني في المركب الانساني الالهي الذي هو صنيعة الانسان ، وذلك بتوكيد حريته بازاء الله وبازاء الكون معاً . فأنكر الانسان صورة الله التي في نفسه ، وذلك في عهد النهضة . ثم جاء عهد الاصلاح الديني فأنكر الحرية الانسانية مسلماً القياد كله للطف الالهي المباشر ، وان اكد الحرية الدينية للانسان بازاء الكنيسة . وواكب هذا كله اتساع سلطان الآلة والنزعة الآلية في تكييف حياة الناس ، فقضى على الحياة العضوية التي سلك سبيلها العصر الوسيط . وجاءت الديمقراطية والنزعة الفردية فزادت من فوضى الانسان ، بأن جعلت مقياس « الحقيقة » في « الاغلبية » . وهذا كله من شأنه ان يزيد في نزع الانسانية عن الانسان .

لكن برديائف لا يريد ان يستنتج من هذا ما انتهى اليه اشبنجلر من ان هذه الامور من اشراط ساعة الحضارة الغربية . بل يرى التاريخ يشق مجراه قدماً في غير توقف اوعود . انما رأى فيها ظلمات قد اناخت بكلاكلها على العالم ، كما حدث قبل نهضة العصور الوسطى ، ولن تلبث هذه الظلمات ان تتبدد فتشرق « عصور وسطى جديدة » هي التي يتنبأ برديائف بأننا بسبيل انبثاقها عن عماء هذا العصر الحديث . فسيكون ثمت عود الى الينبوع الاصيل ، الى اعماق الوجود الاولي ، وهنالك يبزغ العالم الجديد يرفرف عليه لواء وثبة مسيحية كبرى من ذاك النوع الذي نشاهد ارهاصاته لدى رجال النهضة الدينية الروسية الذين تحدثنا عنهم : فتعود الى الدين قوته الاولية ، ويستحيل المجتمع الى « مشاركة عضوية حافلة » تكون تجسداً لمعنى تناول القربان في الطقوس الدينية . ولروسيا دور خاص في هذا التحول ، لانها تمتاز من بقية أوربا بأنها انتقلت مباشرة من العصور الوسطى القديمة (ان صح انه كانت لها عصور وسطى قديمة ، بالمعنى الذي يفهم به هذا اللفظ بالنسبة الى أوربا الغربية) الى العصور الوسطى الجديدة المقبلة ، وما البلشفية الروسية الا المرحلة الاولى من مراحل هذا التطور ! لكنها مرحلة يجب القضاء عليها في نظر برديائف ، لان الماركسية وان ردت الى الانسان كرامته في جعلها الانسان سيد عمله وتحريمها استغلال الانسان لاخيه الانسان ، فانها مع ذلك قصرت لانها تعوزها فكرة الشخصيه الانسانية ، ورأت في الانسان كائناً تحدده العوامل الاجتماعية والاقتصادية وحدها ، فقضت على الفرد لحساب المجتمع ، وبزوال هذه الثنائية بين الانسان الفرد والجماعه ، زال المعنى الحقيقي للانسان ، للشخصية . نعم انه لا صلاح للعالم الا اذا حلت المشاكل الاولية للحياة الانسانية ، مشاكل الخبز والاقتصاد ، لكن الاقتصار على هذا هو بعينه الفساد كل الفساد . فليست آفة العصر في النظرة البورجوازية الى العلاقات الاقتصادية بين الناس في المجتمع وحدها ، بل خصوصاً في النظرة البورجوازية الى الحياة الروحية . غير ان برديائف يرى ان القضاء على هذه النظرة الاخيرة لن يأتي الا عن طريق « التسليم بسر الصليب » (« المسيحية والواقع الاجتماعي » ، ص ١٦٩) ، ويرى ان هذا التوجيه لا يتفق مع الشيوعية لانها نظرة كلية في الحياة بكل مرافقها ، وانما يتفق مع الاشتراكية لانها يمكن ان تقتصر على تنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية دون ان تتجاوزها الى ميدان الحياة الروحية ، بل تدع هذه من اختصاص الدين ، الذي يأبى ان يشغل فردٌ فرداً او طبقةٌ طبقةً اخرى ، والمدنية الرأسمالية هي التي قضت على فكرة الله .

وهكذا يحاول برديائف ان يوفق ما بين الدين والاشتراكية كما حاول التوفيق بين الدين والوجودية ، شأنه شأن جبريل مارسيل Gabriel Marcel المفكر الفرنسي الوجودي الكاثوليكي المعاصر ! لكنه من اجل هذا يضطر الى الوان من التأويل لكلا الطرفين المتباعدين حتى تتم المساومة ، وفي هذا التأويل من المغالاة والبعد عن الفهم المستقيم ما يخشى معه تشويه الجانبين ، على الرغم مما يحتال به هنا من ايغال في التمييز ووضع الفروق الدقيقة nuances حتى يلبس عليك الامر فتوافقه على مبتغاه . ومن هنا كان ثمت ما يدعو الى التحصن من مكره الخفي في كثير من الاحيان ، خصوصاً وله مهارة فائقة في العرض والتحليل بحيث يغري بك — ان لم تكن متنبهاً — الى ان تسايره حتى النهاية فتمالئه على نتائجه .

وأيا ما كان الامر ، فنقولا برديائف شخصية خليقة بالعناية وان اتسمت آراؤه بالرجعية المعسولة باغراء الواقع الحي المموه .

عبد الرحمن بدوي

الجزيرة الراقصة

بقلم صلاح الاسير

سماء غائمة ، وسحب رمادية دكناء تحجب الزرقة ، ورياح مجنونة عـابثة تروح وتجيء ، ورذاذ مطر منهمر يقرع الجدران وينفذ الى البيوت من خلال النوافذ ، والاشجار في الحديقة تتمايل مع كل هبة ريح في رقصة بارعة ، وهواجس الغد ترتسم على محجري صاحبي في نظرة باهتة ، والليل يؤذن بالزحف الاسود ، وانا الى جانب صاحبي في صمت يطول . لم يكن صاحبي ليتكلم ، ولقد خشيت عليه هذه الهدأة فأمسكت بيده اهزها هزاً ، بينما كان هو ينتقل في هدأته من مجهول الى مجهول ، في سعادة لا تبين ، وحبور تكسوه غـلالة من شقاء زائف . ولقد ادركت انه الساعة معها هي بالذات ، مع بعد الشقة بينهما ، وكدت استمع حديثاً يتبادلاه في مثل النجوى ، ويفتر ثغرهما بين الحين والحين عن بسمتين هما كل الصحو والصفاء ، وتتغير اسارير وجهيهما بين نقلة ونقلة ، اجل ! . . كان منظرهما غير المنظور من سواي يفرض عليّ التأمل ، ويلزمني التربص والتحديق ، فـاذا التفت صاحبي الي فلكي يبثني في نظرة شكره الضافي لانني لا انوء بما احمل من همومه التي ولدتها عنده مخيلة جامحة قوية ، ويشتد الهرد ويحضن الارضَ الليلُ ، وليل الشتاء ضنين بالنجوم والشهب ، فما اقدم على اضاءة المصباح ، لانني اعلم الناس بما تحمله الظلمة لصاحبي وللطيف الذي يؤثره على نفسه ، ويرى فيه زاد يومه وغده ، ومااذا علي انا بالذات اذا قـاسمت هذا الكائن الغريب نتائج اطواره الغريبة ، فلقد تعبت انا الآخر بما تواضع الناس عليه وتعودوا الاخذ به ، ورأيت الى هذا التوأم الذي ولد يوم ولدت ، والذي ارجو له ان يحيا طويلاً بعد موتي ، فاذا هو ينطاق حراً ليشقى وليسعد في حريته ، ففي منطقه تمحى الحدود وتنهار السدود وتميد التوافه والنوافل ، ويمسح على المرئيات ، ولا يبقى سوى المتحتم المجدي ، واني اشهد بانه كثيراً ما اتعبني اللحاق به مع اننا نكاد لا نفترق فلقد فرضه القدر علي وفرضني عليه ، فقنع كلانا بقسمته هذه من الدنيا ، ويشتد الهرد وتزأر السحب ويتكاثف المطر ، وصاحبي على حالته تلك معها هي بالذات ، ولقد بدت كالدمية المصقولة يصب فيها صاحبي الروح فتنتشي في قلقهـا ، وتغرق معه في سكرة الايحاء ، وتبترد اطرافها اذا غمره الصمت ، وتدب فيها الحياة اذا تكلم وهكذا اراه ينقلها في الهنيهة البخيلة بين الموت والحيـاة دون ان تنقطع الصلة بينهما ، وترتسم على اساريرها تهاويل حالمة ، ويضطرب رأسها الصغير ، وتنشق عيناها الكبيرتان عن مثل الرؤيا ، فيطيل صاحبي التنقل في الرؤيا ، وتنجلي الاعماق في عينيها عن الف فردوس موعود ! . .

وانتقل معها الى شاطىء اقفر الآن من الماء والرمال ، تمرح عليه الشمس بالذهب المذاب ، وتتخذ الرمـال عند مواطىء اقدامهما اشكالاً تذكرني بما يبنيه الاطفال من بيوت وحدائق ، ويطفر الماء عند الوطء الخفيض ، ويستقلان معاً ودائماً معاً زورقاً صيغ من وجنات الضحى ، يخفق شراعه بالوان الامل ، ويسير الزورق على كف الماء بوحي قوة مرهوبة ؛ ويطوي الزورق المحيطات ليحط على شاطىء جزيرة كحلتها الخضرة واكتست صخورها العقيق رداء وحلى ، وتضحك الجزيرة النائية لهذين العاشقين بالثمر والزهر ، ويشرق الربيع من جنبات الجزيرة بالشوق البعيد الى تلاقي اثنين ثالثهما الحلم ، وللامواج في تلك الجزيرة موسيقى بارعة تدفع بهما الى الرقص والغناء ، وتتلفت الآفاق صوب هذه اللوحة العجيبة الراقصة ، صوب جزيرة ترقص في تجاوب مع الماء والهواء ! ويختفي الشراع ، فما في الحسبان عودة منتظرة ، ويستسلمان الى النوم في غيبوبة عميقة لذيذة ، بينما تخرج الطيور من اوكارها مباركة المعجزة ؛ فلقد طال بها الانتظار لرؤية دميتين من غير عـالم الطير ! . . فاذا كان الصباح افاق ليرقص من جديد ، ولتردد جنبـات الجزيرة اصداء الغناء الاول ، وليمور الشاطىء برؤوس الاسماك المنصتة ، وتحمل النسمات عبير الازهار البحرية اليهما في باقة من الهواء النقي ، ويلتفت صاحبي نحوها لتقول له ان يؤكد لها ان لا عودة الى جحيم الناس في ذلك العالم الماكر الذي تركاه بالامس ، فيعرف صاحبي تذمرها من ذلك العالم وضيقها به فما يجيب بل ينطاق بها في رقصة كالصلاة ، ترتفع بهما الى فوق ، على ايقاع متصل بالدوي الدائم !.

وتنقطع فجأة هذه الرحلة السعيدة ، وكانت العودة على نحو غامض ، هذه الرحلة التي استمرت ساعات وصاحبي مـا يزال عند النافذة وقد اختفت هي والتفت اليّ ليقول لي .

— كيف عدنا ؟ . كانت رحلة سعيدة ! لماذا عدنا ؟ . اين هي ؟ .

وفي وسع النـاس ان يفهموا موقفي انا بالذات ، من هذا الكائن الذي يستطيع في ساعات ان يقطع البحـار ويصل الى جزيرة نائية ، وهو ما يزال الى جانب النـافذة يحدق في الطبيعة

علم النفس الادبي

بقلم الدكتور ابو مدين الشافعي
مدرس علم النفس التجريبي بجامعة فؤاد الاول



حاول الاستاذ امين الخولي ربط البلاغة بعلم النفس، وطالب بضرورة التزود من المعلومات النفسية للسيطرة على الطرق الفنية في القول. والح الاستاذ الخولي طويلا في مطالبته بايجاد مقدمة نفسية لدراسة الادب. وبدأ فعلا محاولته هذه بمقال نشره في مجلة علم النفس أسماه «علم النفس الادبي» والقى - بعد ذلك - عبء الامانة على عاتق القائمين بشؤون مجلة علم النفس والمشتغلين بهذا العلم.

وكنت وقفت من قبل على رسائل الاستاذ الخولي الباحثة في علاقة علم النفس بالعلوم الادبية، وكنت حاولت في سنة ١٩٤٢ كتابة ردود قاسية على بعض النقط التي جاءت في رسائل الاستاذ ولكن تلك القسوة لم تلبث ان انقلبت الى اهتمام شديد بالموضوع والاخلاص للفكرة وادى كل ذلك الى الشروع في تأدية الامانة التي القاها الاستاذ المجدد على اكتاف رجال علم النفس.

ان فكرة الربط بين علم النفس والادب فكرة قديمة جالت في خاطر الادباء خارج مصر والاقطار العربية والفت كتب النقد في فرنسا وفي بريطانيا وامريكا والمانيا وغيرها مستندة الى كثير من التطبيقات النفسية. ونجد كذلك آلاف القصص الروائية والتاريخية تقوم كلها على تحليل حالات نفسية شائقة. واشتهر الادب الفرنسي في القرن السابع عشر بالاسراف في هذه الناحية حتى تكاد كل الكتابات الادبية الفرنسية في القرن السابع عشر تدور حول الازمات النفسية الناشئة عن تضارب بين العاطفة والعقل ونجد (راسين) يغلب دائما العاطفة على العقل بينما مال كورنيل Corneille الى الموقف المناقض لموقف راسين (Racine).

ونجد ايضاً في القرن السابع عشر كاتباً روائياً ماهراً وممثلا بارعاً قدم اكبر الخدمات لامته في عصره والعصور التي تلته بل لقد تجاوزت آثاره الى الامم الاخرى. فكان موليير Molière عبقرياً قادراً استطاع ان يقف في وجه كل الهيئات والتيارات الفكرية وكان لهذه المقاومة اثرها في نفس موليير فقد دفعته الى ايجاد طرق حكيمة لتبليغ رسالته الادبية.

حمل موليير على عاتقه مهمة اصلاح الشذوذ النفسي المتجلي في سير كثير من الناس وقام بواسطة التمثيل الهزلي يؤدي هذه الرسالة الشاقة، واخلص موليير لمبدئه وعاش لفكرته الى ان مات على المسرح وهو يمثل «المريض بالوهم» ويكفي لنعرف آثاره في المجتمع وتأثيره في خصومه الممثلين في رجال الدين ذكر موقف الكنيسة منه حتى بعد وفاته اذ حرمته من حق الدفن واضطرت السلطات الى التدخل لتعطي له قطعة من الارض يستريح فيها الراحة الابدية.

وكذلك نجد للكاتب La Bruyère لابروير جولات قيمة في تهذيب النفوس عن طريق الوصف التهكمي. ونجد ايضاً في مختلف الآداب الاخرى قصصاً تهز ناحية نفسية شاذة، استغلها التمثيل السينمائي بعد ما وجدها خصبة من نواحيها المادية والمعنوية.

وبجانب هذا الاتجاه في تحليل الآخرين نجد الاتجاه الادبي العام في كل الامم وكل العصور يهتم بتحليل حالات الاديب نفسه، وقد فكر الاستاذ امين الخولي كثيراً عند كلامه عن «الفنية» بهذا الموضوع وشعر بالنقص الذي يهدد ادبنا، ولاحظ ان كل الدراسات الادبية الموجودة اليوم بين ايدينا لا تعطينا العمق المطلوب ولا تصل بنا الى الغاية المنشودة من كل أدب.

عرف الاستاذ الخولي البلاغة بفن القول والبحث عن الجمال فيه وكيف، وبم يكون. ان الشعور بالفن وتكوين الذوق وادراك الجمال أمور داخلة في نطاق علم النفس. ونحن الآن امام مشكلة

الغضي، وكان من الطبيعي ان لا اجيب، وان اعتصم بالسكوت فلقد اردت انا ايضاً لو كنت معها هناك الى الابد، ولكنني التمس الواقع المؤلم فاحمد لتوأمي هذياناً يسعده، وخيالاً يعطيه، وجواً يرتفع به، فاذا كان الصباح بدت طلائع الضوء. تكشف عن وجوه بعض ازهار الشتاء، وتصبب رأس صاحبي التوأم بالعرق البارد، ومال برأسه الى وسادة قريبة ليروح في مثل الحلم، لينقله ذلك الزورق من جديد الى تلك الجزيرة النائية!..

واتركه للنوم، للحلم، للغيبوبة العميقة، فلقد آن لي ان استريح، انا الذي تعود ان يجابه الحقائق، ويهزأ بالاحلام، ولا يؤمن بالزورق المسحور، والجزيرة النائية، بل انا الذي يؤمن بانه على ارض ازهارها قنابل، واحداثها فواجع، وكفاحها خداع، وابتسامها تقطيب، واملها غد يضج بالنار والحديد، ونعيمها في انتصار مادة على روح، وباطل على حق، وشر على خير!.

لادعه في حلمه الممتد، ليت لي بعض قدرته على الخيال والشعور، لانجو ولو بالوهم من واقع يتقهقر، من عالم يجوع وهو متخوم، من ارض نزلها الفردوس فاحرقته وهي تقهقه كالمجنون. كالمجنون في ساعة عاقلة!..

صلاح الاسير

نفسية سواء قصدنا تكوين الاديب او فهم انتاجه وتتبع احواله.

ان الاديب الكامل هو الذي يفرض نفسه، ويجعل شعوره يسيطر على كل من يتصل به عن طريق السماع او القراءة . لذلك يحتاج الاديب نفسه الى فهم واسع للحقائق الانسانية ليميز بين ما هو عام وما هو خاص؛ ومهمة الاديب العادية هي تحليل نفس القارىء ومس النقط الحساسة الكامنة في طواياه واظهار الاهتمام بعد الركود والانتباه بعد الغفوة .

لا شك في ان هذه الحالة قد وجدت بالفطرة عند كثير من الادباء ودفعتهم الصدفة الى اكتساب هذه الميزات النادرة التي اعطتهم السلاح القوي للتأثير في الآخرين والتحكم في عواطفهم، والتصرف في انفعالاتهم ببعث الحزن تارة وإثارة الفرح تارة أخرى.

يختلف الناس في حالاتهم النفسية من ناحية الحركة النفسية، فالبعض يشعرون بحالات عديدة تختلف اختلافاً واضحاً، فينتقلون بسهولة من حالة فرح الى حالة حزن ويعرفون كيف يتخلصون من الندم الى الرضا عن النفس ومن الثورة الى الطمأنينة والهدوء النفسي، وتكثر عند هؤلاء تيارات نفسية قوية ويكون الشخص في حاجة للتخلص منها عن طريق التعبير وقد اوجدت اللغات اللاتينية كلمة exprimo لتشير الى عملية التعبير وهي تعني حرفياً عملية الطرد الى الخارج عن طريق الضغط . والملاحظ ان الحيوان يطلق الصيحة القوية عند الالم او الفرح حتى انه يصعب عليه كتمانها في بعض الاحيان . فهي حركة جسمية مثل اى حركة أخرى تصاحب شحنة انفعالية وزوبعة نفسية . وكثيراً ما تكون الحركات الفعلية او اللفظية ايقاعية لتقطع الحالة الانفعالية وتقلل من آثارها .

وما علينا الا ان نلاحظ الفرق الموجود اولاً بين الاشخاص في الحالات النفسية حسب اعمالهم وبيئاتهم . فالعامل المزارع الذي يدعى في لغة العوام بالفلاح والذي يشير الى الرجل البسيط، فقير في الحالات النفسية حتى انه يمكننا عدها وحصرها ويكون له شعور معين في وقت العمل وشعور آخر وقت الراحة وعندما تدهمه زوبعة نفسية شديدة، لا يعرف كيف يتصرف فيها ولا كيف يقسمها ويخفي بعضها ليظهر البعض الآخر حسب المقام، فتراه يفقد كل تكيف مع المجتمع . ويكون في حالة اندفاع شديدة قد تؤدي به الى اذية نفسه او غيره . ولذلك نجد الصيحة تكثر في تعبير هؤلاء . وتكون الكلمة ميالة الى المد فنسمع بعض سكان الجنوب[1] ينطقون عظمة «عاظمة» ويدخلون في كلامهم صيغة تحاول ان تطيل الالفاظ .. وسنرجع بعد ذلك الى بحث الصلة بين الصيغة اللفظية والحالات الانفعالية في الكلام عن صلة الشعور الصادق بالشعر المطابق .

ونشير الآن الى الحالات النفسية المتعددة المتداخلة عند الاشخاص الذين تضطرهم حياتهم الى التعرض لحالات نفسية متباعدة . واهم شرط لوفرة الحالات النفسية وتجددها هو آثار البيئة الاجتماعية والحالة الجسمية وعليها يقوم الشرط الثالث وهو الحالة النفسية .

ان أبسط صلات الفرد بالمجتمع تكون عن طريق الخضوع لايقاع واحد والاشتراك في حركات متشابهة، ونجد مثلاً واضحاً لذلك في الذكر الذي يربط بين الافراد « الفقراء »[2] في الحالات النفسية والذين يعيشون مدة طويلة من الزمن منفصلين في الحقول ومنعزلين عن المجتمع، فنلاحظ ان الفلاحين قليلو الكلام .

وتعتبر اللغة اهم ركن من اركان التكامل النفسي الاجتماعي ونجد اختلافاً بيناً بين البيئات الاجتماعية في تقدير جمال القول، وتساءل البحاث طويلاً: هل هذا التقدير يرجع الى نفسية الفرد ام الى الذوق العام ؟ وتقدير الجمال في القول شبيه بتقدير الجمال في غير القول وقد يسمى هذا الجمال خيراً او حقاً . وقد مضى العصر الذي كان الفلاسفة يضيعون فيه الوقت باحثين عن أصل تقدير الناس للخير والشر والتبعة والذوق في داخل الانسان وذاته الشخصية . فهذه طريقة الفلاسفة الذين يريدون ان يتأملوا في انفسهم وليكونوا أحراراً في نتيجة تأملهم فلا يستطيع شخص ان يوجه لهم نقداً . فالنفس حصن مغلق لا يقبل المراقبة التامة من الخارج، وحاربت طريقة التأمل الباطني في تعليل عدة ظاهرات مهمة عن طريق النفس وكان الاختلاف في ذلك كبيراً . وهذا طبيعي لان لكل انسان نفساً ولكل نفس طريقة في التأمل والتأويل والتقدير .

استعمل بعض الفلاسفة « علم النفس » لشرح بعض الظاهرات المتعلقة بالتعبير الانساني الراقي . وهناك نقطة هامة يجب الوقوف عندها وهي فهم الفلاسفة لعلم النفس . فلو تتبعنا اتجاههم في فهم علم النفس وجدناهم يوحدونه بعلم المنطق ولذلك وجدناهم يرجعون فهم البلاغة الى التأمل الباطني واستعملوا في نفس الوقت المنطق لتحديد معنى البلاغة وميدانها . واعتبرها ارسطو جزءاً من كتاب الارغانون في المنطق ومال بالبلاغة الى معنى الخطابة حتى بقيت كلمة Rhétorique تطلق على البلاغة وحدها في العصر الحديث وسنرى في فرصة قادمة موقف الفلاسفة العرب من هذه المشكلة وما انتهى اليه الاستاذ امين الخولي من راي في صلة البلاغة بعلم النفس .

القاهرة — ابو مدين الشافعي

(١) المقصود جنوبي مصر (٢) تعبير مغربي عن المتصوفين .

فن التصوير في القرن السابع عشر

بقلم رشيد وهبي

☆

عندما نذكر* الفن في القرن السابع عشر يجب ان نذكر الفن في بلاد الفلمنك وهولندا واسبانيا بصورة خاصة . ذلك لان الفن في ايطاليا بعد ان بلغ ذروته من الازدهار في اواخر القرن السادس عشر، اخذ في الانحطاط والتدهور في القرن التالي بينما اخذ ينمو ويتألق في البلدان الاخرى التي ذكرنا، واصبحت له فيها تلك المكانة الممتازة التي كانت لايطاليا في عصر النهضة . لذلك آثرت ان اتكلم عن هذه المدارس الثلاث مقدماً لها باهم ميزاتها ذاكراً أبرز اعلامها الذين امتازت آثارهم بالخصائص الرئيسية لفن ذلك العصر .

المدرسة الفلمنكية

هناك اختلاف ظاهر بين اساسي المدرسة الفلمنكية والمدرسة الفلورنسية (الايطالية)، فان اساس الاولى يعود الى الفن القوطي بينما تنسب الثانية الى الفن البيزنطي . ولذلك نرى فناني فلورنسا قد اقتصر معظم انتاجهم على الموضوعات الدينية في صور مرسومة على جدران الكنائس (Fresque) بينما نرى مصوري الفلمنك ينتقلون بالفن الى واقع الحياة اليومية فيصورون ألواناً شتى من عادات القوم وطباعهم بما فيها الفكاهة والدعابة . وبذلك يعتبر فن الفلمنك اقرب الى الفنون الحديثة منه الى الفنون الايطالية .

لقد كان لجو الفلمنك اثر كبير في اهمال الصور الحائطية التي كانت تزدان بها جدران الكنائس في ايطاليا حيث يمتاز الجو بالصحو والنور فيجعل من اليسير مشاهدة هذه الصور والتمتع بها بينما يتعذر ذلك في الفلمنك لان الجو قاتم مظلم، ومن البديهي انها تفقد بسببه كثيراً من جمالها واهميتها . ولذلك انصرف اهل الفلمنك الى نوع آخر من التصوير يسهل معه نقل الصور من مكان لآخر . والجدير بالذكر في هذه المناسبة ان هذا السبب كان مما دعا الى اكتشاف التصوير بالزيت او بالاحرى اشاعة استعماله على يد الاخوين (جان وهربرت فان ايك) منذ بداية القرن الخامس عشر بعد ان كان التصوير يعتمد قبل ذلك الحين على الماء والاصباغ وبطريقة الفريسك .

تمتاز المدرسة الفلمنكية باهتمامها الشديد في دراسة الطبيعة وتحري الحقائق بدقة وعناية والابتعاد عن المبالغة والتزيين كما تمتاز ببراعتها في التأليف وتوزيع الاضواء والظلال واستعمال الالوان الزاهية واخراج موضوعاتها في حلة شديدة البساطة بحيث يحيا المتأمل اجواءها الصاخبة .

ويعد المصور (روبنز) في الواقع واضع الاسس الاولى للتصوير الفلمنكي الحديث ومؤسس المدرسة القوية التي اعتبرت في مطلع القرن السابع عشر المدرسة الفنية الاولى في اوربا . وفي ايامه صار لأنفرس Anvers تلك المكانة الرفيعة التي كانت للبندقية في السابق .

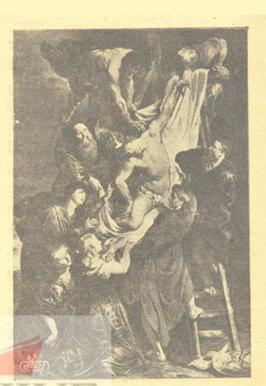
لم يكن روبنز رساماً فقط بل كان ايضاً رجلاً سياسياً يختلط بالملوك والامراء . وقد كان له من ثقافته الواسعة وحدة ذكائه وعمق تفكيره ما جعله شخصية فذة وعلماً خالداً .

ولقد كان لعلاقاته السياسية اثر بيّن في تربيته الفنية فقد اوفده الحكام وذوي النفوذ عدة مرات الى روما وفلورنسا وبولونيا والبندقية لنسخ اشهر اعمال فناني عصر النهضة . وقد افاد من ذلك كثيراً فقد نقل هذه الصور بمهارة فائقة تعتبر مجداً فنياً يضاف الى مجده الذي بناه بما الفه وانتجه من لوحات تبدو فيها قوة التأليف الى جانب قوة الرسم وحيوية الاسلوب . ويبدو لنا تأثير الفن الايطالي في فنه اذا تأملنا صورة «النزول من على الصليب» التي تعبر لنا عن حبه الشديد لميكالنجلو وفيرونيزه، تلك المحبة او ذلك الاعجاب الذي حدا به الى ان مثلهما في الصورة بشخصيهما في وضع جليل .

* القيت هذه المحاضرة في الدرس السادس من سلسلة تاريخ التصوير الزيتي الذي تعطيه اللجنة الفنية في النادي الثقافي العربي ببيروت .

ولروبنز ايضاً صورة (حكم باريس بن بريام) وتمثل الآلهات الثلاث جولون ومنيرفا وفينوس عاريات وهن واقفات امام باريس ليحكم بينهن ايهن اجمل جسماً وارشق قواماً فانتخب الآلهةفينوس. وله ايضاً صورة (الحرب والسلام) التي رسمها حينما اوفده الملك فيليب الرابع ملك اسبانيا الى انجلترا لوضع اساس الصلح بين البلدين وقد مهد بها لهذا الصلح فمثل منيرفا ربة الحكمة تدفع الحرب الى الوراء بينما السلام يستقبل الغنى والسعادة، وبهذه المناسبة سأله احد الانجليز قائلاً : « هل مولاي السفير يلهو احياناً بالرسم » ؟ فاجاب روبنز : « كلا انما الهو احياناً بالسفارة ».

ومن اشهر مصوري الفلمنك يجب ان نذكر ايضاً (فانديك) وهو من تلاميذ روبنز الذين اظهروا شخصية بارزة في عالم التصوير. وقد عاش هذا المصور في انجلترا في بلاط الملك شارل الاول وامتاز عن روبنز برشاقته الارستقراطية والعمق في التعبير ودقة الرسم. ومن قطعه المشهورة صورة الملك شارل الاول وهـي تحفة رائعة تعتبر من خير ما ابدع فان ديك ، مثل فيها الملك شارل الاول في وقفة طبيعية لا تخفى عنها مظـاهر الابهة والعظمة ورسم وراءه حصانه وقد احنى رأسه في حركـة لطيفة بينما وقف خادمه خلف



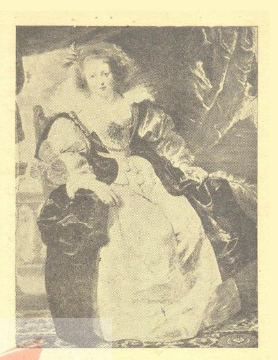
النزول من على الصليب لروبنز

وقد مـلأ روبنز هو وتلاميذه القرن السابع عشر بصوره المتلألئة الوضاءة والعامرة بالالوان الزاهية المتناسبة وبموضوعـاته الخرافية التي صور فيها الاجسام العارية الممتلئة صحة وحيـاة في اوضاع متنوعة وعضلات واضحة جلية والتي نلمس فيها نشاطاً في الحركات مع شيء من الرشاقة بالرغم من غلاظة الاجسام ، وهذا ما يمثل العنصر الفلمنكي الذي يحب التمتع بالحياة المادية من اكل وشرب ولهو ومجون ، وقد نرى هذا الخلق في شخص روبنز نفسه ولذلك لا نجد عنده في الوجوه عواطف عميقة . وفي لوحاته الدينية لا نرى في الوجوه العواطف الدينية بل نجد في ملامحها وقسماتها ما يشابه ذلك.

وقد كان روبنز غزير الانتاج ويقدر عدد لوحاته التي صورها بما يزيد عن الفي صورة كان يقوم بانجازها بسرعة يعاونه في ذلك تلاميذه الكثيرون الذين كان يضيق بهم مرسمه في انفرس. ومن اشهر رسومه صور عديدة لامرأتيه الاولى والثانية ولبعض مشاهير الرجال في كثير من بلاد اوربا وكذلك لوحات كبيرة تمثل تاريخ هنري الرابع ملك فرنسا وامرأته الملكة ماري مدتشي .



روبنز بريشته



هلين فورمان لروبنز

•

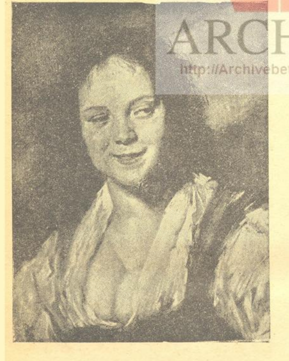
الحصان . واحاط هذه المجموعة بمنظر طبيعي وشجرة مظللة خلعت على الصورة تكويناً بديعاً وجمالاً اخاذاً . وقد كان لهذا الفنان تأثير عظيم على المدرسة الانجليزية التي ظهرت في القرن الثامن عشر .

المدرسة الهولندية

لم يظهر التصوير في هولندا الا متأخراً اي في اواخر القرن السادس عشر وبلغ ذروته في القرن السابع عشر حينما نالت هذه البلاد استقلالها بعدان كانت تابعة للملك فيليب الرابع ملك اسبانيا فاصبحت موطناً للفن ومقراً لازدهاره . وقد ظهرت فيه على الاثر حركة فنيه تجديدية ترمى الى تسجيل الحياة وابراز نواحي الجمال فيها . فالفن الهولندي اذن فن دنيوي واقعي لم يطرق الموضوعات الدينية اذا استثنينا بعض لوحات رمبرانت . وبوسعنا ان نؤكد انه لم يحب شعب من الشعوب فن التصوير كما احبه الهولنديون . وفي هذا العصر نجد عدداً لا يحصى ولا يحد من المصورين ولكن ابرزهم فرانز هالز ورمبرانت اللذين ظهرا في زمن واحد .

ورسوم (فرانز هالز) تعطينا صورة صادقة عن حياة الهولنديين في ذلك العصر لاننا نرى فيها على الوجوه مسحة القلق والغم والاضطراب ، وهي الاحوال التي انتابت ذلك الشعب حينئذ اذ كان يجتاز فترة كفاح شديد ضد الاسبان . ولكن بعد ان انتصر الهولنديون واضطرت اسبانيا الى الاعتراف باستقلالهم نجد الوجوه في رسوم فرانز هالز قد استبشرت وانطلقت اساريرها . ومن ابدع صوره : الفارس الضاحك والغجرية والانشودة الساحرة والساحرة مع البوم وغيرها . وفي هذه الصور تتمثل لنا شخصية فرانز هالز الفنية على حقيقتها اكثر من غيرها من الصور التي صورها لغرض الكسب كلوحات : اعضاء جمعيات التجار او الضباط او اعضاء مجالس المستشفيات . اننا نرى ملامح اشخاصه متحركة بالضحك او بالكلام او بالنظرات البراقة وترتسم عليها العواطف المختلفة بل ان الضحك يبدو طبيعياً في وجوهه بينما يبدو جامداً متكلفاً عند غيره ، ذلك لان هالز يجتهد في ان ينقل حركة الملامح في لحظة من اللحظات معتمداً على طريقته السريعة الحية .

واذا نظرنا الى فرانز هالز ورمبرانت نجد ان الاول عاش القسم الاكبر من حياته في زمن الحرب وسط الحياة القلقة المضطربة التي لا تتيح للانسان التفكير والهدوء . فطبع صوره بطابع هذه الحياة



الغجرية لفرانز هالز



درس التشريح لرمبرانت

●

بينما نجد الثاني قد امضى معظم عمره في عصر السلام والطمأنينة ولذلك يمكننا القول ان فرانز هالز كان يمثل روح الفروسية في هولندا وحيويتها بينما كان رمبرانت يمثل عمق تفكيرها .

ان المتأمل في آثار (رمبرانت) ليلمس فيهـا نزعة انسانية شاملة تمثل لنا بجلاء ، ووضوح روح الفن في جميع عصوره وادواره وتعطينا عن شخصية رمبرانت صورة عالمية تكاد تخرج من اطار الزمان والمكان والعرق الذي احاط بحياته ، فقد نشأ بين قوم همهم وشغلهم الشاغل العناية بتجارتهم ولهوهم وبذخهم وافراحهم بينما لا تنال المثل العليا والمعاني السامية من تفكيرهم اي التفات . وقد برز بينهم رمبرانت فكان ظهوره في هذه الظروف كالمعجزة . فعاش لاجل الفن وعبر في صوره عن اعمق واسمى المعاني الانسانية التي نبضت بها الاجيال وعمرت بها الاساطير وحوادث التاريخ ، وحقق في عصره اعمال دانتي الذي ظهر بعده في الزمن واعمال شكسبير وميكلانجلو .

وقد امتازت آثار هذا الفنان العالمي بخاصة تفرد بها بين الرسامين في عصره وهي سمو المعنى في موضوعات لوحـاته . فبينما كان المصورون في ايامه يعنون بصور الخلاعة والتهتك ومشاهد المجون والعربدة وما الى ذلك مما كان يلقى التأييد والقبول من معاصريه ، اذا برمبرانت يرتفع عن هذه الاستجابات الوضيعة الصغيرة لنزوات النفس البشرية ويرفض ان ينساق في تيار الفن التجاري الرخيص في بيئته الاجتماعية — ايماناً منه بان الفن رسالة مقدسة — ويؤثر ان يضفي من مثله العليا على لوحاته ما جعلها تفيض وقاراً وعظمة ، وحتى صورة « المرأة السكيرة » التي صورها لا تعبر عن معاني الخلاعة كما قد يظن بقدر ما تصور الخطيئة كعمل غير مرغوب فيه .

ولقد اقتبس رمبرانت من طبيعة بلاده مشاهد رائعة في جمالها اوحت الى خياله بشتى الزخارف والمشاهد الطبيعية فولدها واستخرج منها عوالم احلام يعيش فيها اناس يرتدون الالبسة الفخمة البراقة ، يتموج في الوانها لون الذهب . غير انه بالرغم من كل هذا لم يفقد شيئاً من واقعيته ولم تغب عن ذهنه حقيقة الانسان السيكولوجية .

ويمتاز فن رمبرانت باخراجه الرائع وتلك الانوار السـاطعة والضاربة في الاشياء . ولم تكن الثورة التي قام بها رمبرانت في عالم الفن في الواقع تحقيق الوحدة بواسطة انسجـام الخطوط ولا انسجام الالوان ولكن بواسطة الانسجام في الانوار . فانه كان ينطلق في لوحته دائماً من نقطة منيرة تصبح فيما بعد النقطة المهيمنة على المشهد . ان لوحاته لتمتاز بهذا الضرب من الانوار المفـاجئة العميقة الغريبة والموحية بنوع من التأثير العلوي الخفي . لقـد استعمل النور للتعبير عن معاني صور الحياة بما فيها الانطباعـات والاسارير التي تترجم خلجات النفس البشرية .

ومهما نقل عن فن رمبرانت وعبقريته فاننا لا نستطيع على التحديد ان نستجلي جميع مظاهر هذا الفن وميزاته ، تلك الميزات التي تكاد تكون سراً عميقاً .

انتج هذا الفنان روائع فنية عديدة من اهمها لوحة « درس التشريح » التي نتبين منها مقدرته الفائقة وقوة ملاحظته وهو ما يزال

— البقية في صفحة ٥٩ —



هنريت ستوفل لرمبرانت



بقلم احمد عويدات

أب صغير

يقول توفيق الحكيم: «ان الفنان اذ يحدثنا عن نفسه وفنه وحياته الخاصة انما يقدم المادة فنية غير مصنوعة»

كان كبير اخوته ولست ادري أكان هذا يدخل الغبطة الى قلبه ام شيئاً غيرها! فهو نفسه لا يعلم ذلك. لقد شب ووراءه اخوة يتطلعون اليه. انه لم يكن انانياً بحيث يطمع وحده بلبان امه ويكون وحيد ابويه، بل كثيراً ما تبدت لعينيه طلائع ثورات عنيفة، واثقلت كاهله صعاب لا يقوى على احتمالها عوده الطري، فهم بحاله وتمنى لو لم يكن اكبر اخوته. خالجه هذا الشعور ولم يتخط الخامسة عشرة ثم اقبلت السنون التالية تحقق ما تنبأ به من ألم وشقاء. فرأى نفسه اشبه ما يكون بالمحارب الفدائي الذي يدفعه حرصه على شرف بلادة الى مجابهة الخطر واقتحام صفوف العدو.

وهكذا لم يبلغ سن الثانية والعشرين حتى كان يحمل عبئاً ينوء بحمله رجال في الاربعين. لقد غدا رب اسرة كبيرة يقوم برعايتها واودها، مع انه لم يتزوج فيسكن الى رفيقته الجديدة ويرسم معها، بريشة الامل، خطوط احلامه البكر، بل كان عازباً يعول اسرته من راتبه... الضئيل.

غير انه لم يداخله من جراء ذلك فتور او يأس، بل اقبل على العمل راغباً فيه كل الرغبة، حريصاً على ثماره كل الحرص. ولعل رغبته وحرصه هما اللذان جعلاه يمضي جذلان طروباً في طريقه تلك يحدوه على نهايتها شعور عذب من اريحية يفيض بين جوانب نفسه. فهو يقتر على ذاته ليغدق على اخويه ويحبس صباه في قالب من الاتزان والهدوء ليدفق على آخرين نعيم الحياة. والشباب طفرة لا تعبأ بالاتزان والمقاييس، فرفاقه الكثيرون ينعمون في هذه الفترة من شبابهم بالرحلات والمغامرات والمفاجآت. وهو اذا ما فكر يوماً بمجاراتهم في لهوهم وترفهم، ذكر الرسالة المنوطة به، واعجزته الارقام... كان ثمة قيد في عنقه وكان يعمل جهده لتأمين مطالب اسرته ضمن هذا الرقم من الراتب.. ولو استطاع ان يصنع اكثر مما يصنع لما تأخر عن ذلك لحظة واحدة.

كان ذلك في احدى الامسيات في الشتاء الماضي وكانت العاصفة تولول كالثكلى، برق يلمع كأنه الشهب، ورعد يهز الارض والقلوب كأنه نذير بالخراب، يتبعه عويل وصفير يتجاوبان في الطرقات، والمطر حبال كأنها سيوف مصلتة او كأن الطبيعة داخلها شيء من الجنون ورغبة في الانتقام فحركت هذه الاعاصير الرهيبة التي اطاحت بالاشجار وحطمت النوافذ وعطلت ما سوته يد الانسان.

وكان احمد مسمراً تحت احدى الشرفات يتقي المطر، وهو ملتف بثيابه وقد غرز فيها يديه الى اقصى ما يستطيع، والرياح الباردة تلسع خديه حتى اذنيه، ولو كان يحمل غطاء ممسكاً للف به وجهه ورأسه به ايضاً من شدة الصقيع. وانتظر طويلاً فلم يخف تساقط الامطار، ولكن العاصفة كانت قد سكنت قليلاً واصبح في وسعه ان ينقل رجليه على ارض الشارع بقفزات سريعة غير متزنة الا انه لم ينج من البرك التي كانت رجلاه تغوصان فيها الى ما فوق حذائه.

واستطاع في غمرة العاصفة وتزاحم الناس على القطار، وما لحقه فيه من دفع وجذب، وصراخ وجلبة ان ينزل من القطار على مسافة قريبة من بيته. ولكنه لم يكد يسير بضع خطوات، وقد انفرجت السماء عن سحب تتراكض بين النجوم حتى انثالت عليه افكار وخواطر غامرة اخذت تتغلغل في نفسه. هذا الضيق وهذا البؤس وهذه الحبال تشده الى الارض باوتاد كأنها غرزت في لحمه! ان ذلك الامل وذلك الطموح يكادان يختنقان وهو يتخبط في هذا الجو المحموم. متى ينفض عن ظهره هذه الاحمال. ومتى تمحى تلك العقدة فوق عينيه! وتلك التعاريج...!.

وبلع ريقه واسبل عينيه لحظة وتنهد، ووقف يتحسس جيبه، وفي جيبه مئتا ليرة، كان قد جمعها على دفعات في اول كل شهر. وانبعث في نفسه شعور ثائر.. لمَ يحتفظ بهاتين الورقتين من المال وهو احوج ما يكون الى لباس شتوي يقيه البرد، والى حذاء يدفع عن اصابعه وحل الشارع. جميل جداً ان يحتفظ بشيء من راتبه لايامه السود، ولكن الاجمل من ذلك ان ينفقها عند الحاجة، ما الذي حدا به الى هذا السلوك وفي ايام سود قد لا يرى شبيهاً لها! وهل هناك اكثر سواداً من هذا اليوم! كان باستطاعته ان يستأجر سيارة تنقله الى بيته في تلك الليلة، كان حرياً به ان يتـاح

ما يلزمه وما يلزمه كثير . وكأن دفقة من الايثار ازاحت عن نفسه هذه الخواطر فطردها من ذهنه ويده في جيبه تتحسس تينك القطعتين العزيزتين وتضغط عليهما .

افاق صبيحة اليوم التالي باكراً وضوء المصباح يدغدغ اهدابه ، وما ان تحرك قليلاً في فراشه ، وسط السكون الذي تخترقه دقات الساعة المتزنة الخفيفة ، حتى رأى اخاه غارقاً على الطاولة بين اوراقه وكتبه ، فغمرته مشاعر لذيذة تغلغلت في كيانه وانطلقت به الى حيث يريد . وفي الصباح تنطلق المشاعر اللذيذة وتنسحب معها خيالات صافية من صميم الوجدان . انها تنطلق على نطاق رحب والمرء ما يزال ملتحفاً غطاءه ، حتى اذا قفز من سريره وراح يستقبل نهاره اخذت تلك المشاعر تنكمش لتعود الى انطلاقها في جوف الليل .

كان في فراشه دافئاً ، ولم يلاحظ ثيابه الهزيلة المعلقة على المشجب ، فساوره شعور بالاطمئنان والراحة ، واتجهت افكاره الى الفتى الجالس امامه ، فنسي ذاته او لعله غمسها في ذات اخيه . لقد تفانى في حبه والسهر على مستقبله . انه يخصه بجعالة اسبوعية لا تتفق مع ما ينفقه رفاقه الموسرون ، ولكن هذا الاخ كان يعدها غنماً لضرورات مدرسية ينفقها عليها في حذر شديد والا لما استطاع ان يقعد على الطاولة والى جانبه اصحاب الابنية الضخمة !

لقد كان اباً صغيراً لهذا الناشىء الصغير وكل نظرة منه كانت تفسر ما يجول في نفسه من تقدير وايثار .

واتجه صاحبنا هذا الاتجاه ، واعمل فكره فيه مقارناً بينه وبين غيره . حقاً ان عمله لا يستطيع احتماله انسان آخر . فهو شاب في مطلع حياته ، به شغف الى الهواء الطلق ، ونهم لا يكبته الا بجهد كبير . اليس شاباً ! ايكبح من جماح نفسه وله الحق في ان يغرف من الحياة ويلقح دمه من عبابها ! ان لهذا الشاب نزعة نفسية لا يشركه احد في سرها والنفوذ الى غيرها . انه اشبه ما يكون بشجرة التين امام بيته في القرية وقد تشققت اغصانها لا لأنها اصيبت بالعين كما قام في اذهان العجائز ، بل لغزارة مادتها بسائل ابيض حبيس ، بحيث جف ثمرها ولكن تضخمت اغصانها وتطاولت اوراقها خضراء حية ، وكان خيراً لها ان تلقح بشجرة اخرى او يهوى على جذعها واغصانها بضربات من الفأس .

كان احمد شديد الشبه بهذه التينة التي تخزن حيويتها وهي في اوج شبابها .

وجاشت نفسه كما يجيش الماء في الاناء المغلق ، فهو يريد ان يعب من الحياة الواناً مختلفة ، انه لا يفهم الحياة على انها عمل رتيب واياب ومجيء على درب واحدة ، من عمله الى غرفته ومن غرفته الى وظيفته . انه والحق انسان تافه . لقد تسرب الى نفسه ضجر مخيف ، فهو يريد ان ينطلق عبر الحدود التي رسمتها له يد الحياة الرتيبة .

كانت هذه الافكار تمر بذهنه سريعة حيناً وبطيئة حيناً ، وليس له ان ينفلت منها ، فهي تلاحقه حتى بين صخب الجماهير ، فكيف به الآن وهو اقرب ما يكون الى فهم نفسه ونوازعها !

الا انه لم يلبث حتى ثاب اليه رشده ، فأخوه قطعة من نفسه تشغل حيزاً كبيراً في وجوده . ولقد جند كل قواه ومواهبه لهذا الفتى الذي يهتز بتربيته وتعليمه . كان اخوه بالنسبة اليه بمثابة التمثال يبدع في خلقه وتكوينه او كالطرفة الفنية يصهرها الكاتب من صميم وجدانه . بل لقد كان اكثر من هذا ، كان قطعة حياة يفرز لها من دمه لانمائها وغرسها ، وهذا الشعور هو الذي كان يبدد تلك الغلواء في دمه . كان شأنه مع اخيه شأن الاديب الفنان الزاهد في الحياة ليعطي غيره الحياة !

ولبث اياماً واسابيع وهو اسير صراع . ان عمل الوظيفة يكاد يخدر كل عرق في جسده . انه يرى الهرم يدب في كيانه . . . يقف شعره كلما تصور « نهاية الموظف » وهو يرى بعض زملائه الذين امضوا سني الخدمة واقيلوا من وظيفتهم . فتثور نفسه ضمن هذا القفص الذي يحبس عنه لذاذات الحياة .

فيحرب ان يثور . . . ان يجمع افكاره في كلمة واحدة صريحة ثم لا يلبث ان يرى في راتبه الضئيل المحدود نقطة ارتكاز لحاق انسان حي يعب المعرفة . لا بد اذن من الصبر وما اطول الايام !

وبينما هو منعكف يوماً على ذاته اذا بكتاب يصله بالبريد ، ففضه ، وما ان انتهى منه حتى دس يده في جيبه يتحسس القطعتين الماليتين . وما هي لحظات حتى اطل اخوه وهو يلهث تحت وابل المطر ، وتصوره يهمس في اذنه : اعطني راتب المدرسة ، هات ما وفرته خلال ثلاثة اشهر ، اسرع ! وجمدت عيناه وتمنى لو تسقط دمعة يروّح بها عن شعوره الا ان شيئاً لم يسعفه بل اخذت يده بحركة آلية تمتد الى جيبه وتتناول المائتي ليرة وتفرس بها طويلاً وكأنه يخاطب نفسه : نعم هذه هي الساعة التي ينبغي علي ان اثبت بها وجودي ، وان ذلك الخدر في الوظيفة وهذا العمل الرتيب يتلاشيان امام هذه الرسالة التي حملتها طوقاً في عنقي ، وان لذتي الكبرى لهي في بذل مالي في هذا السبيل وليس في تبديل حذائي الذي تتسرب الاوحال من شقوقه .

ومضى اخوه الى المدرسة ، وانتشى احمد بلذة صهرت كيانه

واخذت قواه تتجدد في هذا الطريق الذي سلكه سنوات عديدة وها ان اخاه يفوز بالقسم الاول من البكالوريا. عجباً كيف مضت هذه السنون الخمس ، انها الآن تبدو كلمحة خاطفة ، وتنفس الصعداء ، بيد انه ، لا تزال هناك سنة اخرى كي ينهي اخوه التعليم الثانوي .

لم تكن هذه السنة كالماضيات من رفيقاتها ، وبقدر ما كان يعلق عليها الآمال فينصرف اليها بكليتها كان اخوه يقابلها بفتور واهمال كبيرين ؛ فتور واهمال لم يخفيا عنه . وهل من السهل ان يغيب عن هذا الاب الصغير شيء ، وهو الذي يهدر شبابه لنفسه الثانية ! انه لم يقف في وجهه يوماً ليقسره على امر او يحمله على رأي او يقيد شخصيته بما يتنافى مع الحرية التي تنبغي لها . بل كان من التدبير والحذر الى حد يرخي له عنان التفكير في اشياء كبيرة . كان احياناً يدفعه بنفسه لحضور السينما ، وكان اكثر الاوقات لا يسأله هذا السؤال الذي تنفر منه طبيعة الشاب . الى اين ومن اين ومع من ! .

وجلس مرة يفكر في امره وقد راعه هذا التخاذل الذي يبدو على اخيه . انه بطبيعته ينفر ان يرغبه في دروسه على صورة مبتذلة . لا يريد ان يكرر عليه ما قاله بالامس بمتابعة دروسه ، وكذلك لم يعد يحمل على الصبر والتروي ، وكان وحده في البيت . است ادري ما الذي جعله يقلب احد الكتب دون فكرة تدفعه الى ذلك ، وما هي صفحات تنشر وتطوى حتى يقف عند احدها وتتسمر عيناه . ماذا رأى ! .

انه يعرف صاحبة هذا الرسم ويراها كثيراً في غدواته وروحاته . وقلب الرسم واذا هو يقرأ في وجوم .

Ne m'oubliez jamais Sousou

ومادت به الدنيا ، ما نوع هذه العلاقة ! وماذا يرتجي من فتاة لعوب . كهذه ! واي نوع من الحب تفهمه هذه الفتاة الصغيرة التي تكوز نهداها عن رمانتين صغيرتين ! يا للخطر تدق اجراسه في كل لحظة يتراءى فيها شبح صدر او محاسن جسد ، فالدم يفور والغريزة تهدر صارخة نهمة وما اسرع هذه الانطباعات التي يستوي فيها المرء عارياً الا من الشهوة ! هي التقاليد التي ضربت حولنا طوقاً من الحديد الصدى . بقدر ما تحبس من نزوات النفس تحت نور الشمس تطلقها جائعة على عطفات الطريق المظلمة . . .

واعتراه اضطراب وهو يطوي الغرفة ذهاباً واياباً ، وبلغ به الهياج حداً لم يعد معه من السهل استجلاء بواطن نفسه . ايكون للنساء هذا الاثر السريع النفاذ وهذه الفاعلية الثائرة في قلب الرجل! واخذ يردد في سره . انهار كل شيء ، ان ذلك التمثال قد بترفي اجمل هيئته ، وان تلك القطعة الفنية قد هبطت الى ابتذال رخيص وان تلك السانفونية البديعة قد لحقها لحن ناشز ! .

وصعب عليه ان يتوقف في اللحظة الحاسمة ، فلمَ لا يثبت الى النهاية ! ولكن ما لبث ان طالعته بوادر الاخفاق وتسربت الى قرارة نفسه عاطفة مريرة . لقد كان فيما مضى يثور لمثل هذه الخواطر اما الآن فقد ناء تحت وطأة الاسى وايقن بضياع جهوده .

الا انه رأى ان يتابع تضحيته حتى وان بدت له ضرباً من المقامرة . ويذكر انه لم يجتهد في جمع القسط المدرسي الاخير حين صرفت الدوائر والمؤسسات راتب شهر لموظفيها ، وان هذا الراتب لم يكن في صلب برنامجه . وكانت حاله اذ ذاك اشبه بشجرة المشمش التي تزهر ولا تثمر .

سأله ذات يوم وكان اخوه يلبس ثيابه . — الى اين يا جميل ! .

— ذاهب . . . ذاهب ، وغمغم بضع كلمات لم تفارق شفتيه وتأبط كتابه وخرج ، الى اين ! ايس يدري ! .

وضاقت به الغرفة على سعتها فارتدى ملابسه وخرج لا يعرف اين يقصد ، وخطر له بدافع الغيرة الملتهبة ان يبحث عن اخيه بعد ان تقاذفته الوساوس . فقد يكون على موعد مع صاحبة الرسم وقد يكون الآن على مقربة من المدرسة يحوم حولها بانتظار رجوعها الى البيت ! وبينما هو واقف على الرصيف مشتت الافكار اذا بنفر من رفاق اخيه يحيونه ويدعونه بشيء من القسر الى المقهى ليتناول معهم قدحاً من الشراب ، فلبى رغبتهم وأخذ في سره يتفحص وجوههم . وتبادل معهم بعض الاحاديث في شؤون متفرقة فرآهم من المخفقين قطعاً في مدارسهم ومن الناجحين جداً في هندامهم العصري ومن المتفوقين البارعين في الحديث عن هذه الجميلة وتلك اللطيفة والاخرى المتكبرة . . .

قال احدهم وهو يداعب الآخر وكان الحديث عن الامتحانات .

— حضرته محارب قديم !

فيرد عليه الآخر بنفس اللغة وامام الضيف .

— وانت في هذه الدورة تصبح محارباً بخمس نجوم ، مشيراً الى عدد الدورات التي اخفق فيها .

ويضحك الجميع ضحكة في رناتها عبث ومجون .

ولما هم بالانصراف شاكراً ضيافتهم سمع احد الخدم يلفظ اسمه على التلفون فرنا اليه ببصره .

— حضرتك مسيو . . . — . . . نعم ! .

— مطلوب على التلفون ! .

فهرع الى ركن المقهى تتملكه الدهشة وامسك بالسماعة .

— الو ! . — جو ، كيف انت يا جو ! .

وهم ان يلقي السماعة من يده ، ان جو ما قرن يوماً بكنيته ، ثم ان الصوت الذي وصل الى اذنه جعله يرتبك اول الامر ثم يرتاب ، ثم دفع نفسه الفضول فامسك بالسماعة من جديد .

— من تكونين ايتها الآنسة ! .

— انا ! سوسو الا تسمعني يا جو ! .

-- انت سوسو !!! . . — وانت ! .

— . . انا لست جو ، انما . . هه . . استطيع ان اخبر « جو » بما تريدين ! .

ولم يستطع ان يغالب الضحك وهو يردد في سره وعلى شفتيه . جو . . جو . . هه ، وفطنت الى الامر فقالت كالواثق .

— انت احمد ! .

فاجابها وهو مسترسل في ضحكته الساخرة .

— حذرت ، ولكن . . . — ولكن ماذا ! .

— احمد اسم عتيق ، الا تفضلين ان يكون « اح اح » او « حم حم » اسوة بجو ! . — O. K. — هكذا ! . — اتفقنا ! .

— ولكن ليس بيننا حساب حتى نتفق ! .

— ماذا ! فقال بصوت رزين لا يخلو من جفاء .

— اصغي جيداً ، انت لم تري شحيم بعد ، وكان بودي لو تحضري عرساً او مهرجاناً او مشهداً شعبياً لتتأكدي شيئاً واحداً يناقض تماماً هذه الميوعة . . . فقاطعته قائلة بالفرنسية .

— آمل ان تبلغ جو انني لن اتمكن من حضور السينما ، وهو مدعو الليلة لحفلة راقصة عند رفيقتي نبيلة ، فأجابها عندئذ محتداً .

— ولكن يا آنستي انني لن ارضى لك ان تهدمي ما ابنيه ، ولا ارضى ان يناديه ابناء قريته باسم جو المخنث وهو ابن الجبل الصخري الذي يتبارى ابناؤه برفع الجرن في الاعراس والمبارزة في السيف والترس بالساحة اتسمعين ! انني غير مستعد ان يفشل في شهادته ليربح هذا اللقب في اوساطكم المتمدنة . . .

ورمى سماعة التلفون بعنف وقد استولى على الرفاق الآخرين صمت حائر ، وغادر المقهى غاضباً طعيناً كالطير الذبيح الذي يرقص من الالم .

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي كان « جو » يدخل البيت ، فتقوم الام وقد شغلها القلق تحاول ان تنهره بشدة ، ولكن عينيها لا تكادان تلتقيان بعينيه حتى تبادره قائلة بصوت مكبوت .

— لم هذا التأخير ! فيجيبها بنظرة صامتة . وتعيد الام الكرة .

— هل كنت تدرس ! .

وبدا له السؤال مزعجاً ، فقال .

— انني لست ولداً حتى اسأل هذا السؤال ! .

— ماذا تقول ، من اين حملت هذا السلوك ! .

— انا حر ! .

لفظها معتداً بنفسه متحدياً كل شيء يعترض رغباته .

واطفى المصباح ، ولكن هل للاب الصغير ان ينام ! لو خير بين ان ينام او يموت لآثر الموت . ثم هل النوم راجع لارادته واختياره ! وراح يتقلب في الفراش ويعصر عينيه فلا تلبثان ان تتفتحا للنجوم تدخل عليه من طاقة بجوار سريره .

ومضى مع فكره وهواجسه ، وكأنه انس اخيراً الى هذا الارق فراح يناقش نفسه ويعلل تصرفاته . ماذا ! اليس اخوه شاباً من لحم ودم ! وهل ينتظر من شاب حدث ان يحمل في فكره هذا الاتزان الرصين ! اما غرق هو نفسه في هذه الافكار ردحاً من الزمن ، فلمَ يعب على اخيه هذا السخف الذي ورثه عنه ؟

واخذت موجة من الافكار تغمر خياله وتقف موقف المدافع عن اخيه . ولكن هذا الاب الصغير جعل نفسه قنطرة فوق الفقر والعوز ليمده بالعلم والافكار الحديثة ، وهو لم يواصل انماء ثقافته كي يعتد ويتحدى . انا حر ! .

جميل منه ان يكون طموحاً الى العلاء ، ولكن لا بد من نقطة ارتكاز على الاقل . انه يود ان يطير ولما يكتس لحمه بالريش . انقول انه مرض العصر تمكن من الشبيبة على هذا النحو المخيف ! ام ان ارادة الجيل لم تصقلها التربية الحديثة فما تزال لينة سريعة الانطباع بهذه المؤثرات اليومية ! ام ان تيار المجتمع دفع اخاه في طريق ملتوية جامحة الى حيث لا يريد ، ام هي علة اخيه حبسها عشرين سنة حتى اذا تنفست عن ثقب صغير انفجرت سيلاً جرف كل شيء ! ام انه اساء الظن بهذه الصورة ، ومن يدري ، لعلها تكون في طريقه مهمازاً سحرياً لاستعادة قواه ! .

هذه او تلك ليس يدري ، انما الذي خلص الى ذهنه شيء لا يمت اليهما بصلة ، بل اخذ يقول بصوت يعصره الاسى وعيناه سادرتان الى بعيد . .

— اخفقت في هذا فهل اربح ذاك ! ! .

احمد عويدات

لقاء في الروض

كنت في الروضة أستاف نديّ الزهراتِ
راعش النظرة في افق عجيب اللمحات
شارد الخطرة ما بين طيوف حائمات !
وبقربي فاتن حلو الصبا والبسمات
يزدهيه فرط شوقي والاماني الوالهات
والتياعي كلما النسم سرى في نبضاتي !
او تهادى الجدول الرقراق فضي السمات
او زقت ورقاء سكرى في الغصون الراقصات
فيباديني باعراض ليذكي حرقاتي !
ويريق السهد في عيني ويذوي قبلاتي
وهو يدري انه روح لنجوى أغنياتي
ومزامير لفنّ عبقري الصدحات
وبكفّيه حياتي ، ان رعاها ، او مماتي !

***

قلت والروض علينا ساحر الاصباح يحنو
وحفيف الدوح ترتيل له ترتاح أُذن
واصطفاق النهر الشاجي كآهاتي يرن !
يا ملاكي لِمَ تنأى ؟ ولك الخافق وكن ؟
لك في نفسي هتاف وغرام مستكن
ومنى لو غنّت الدنيا لما رفرف لحن !
انت لي نبع صبابات بها روحي يجن
وحمياكم لها في مقصف الافراح دنّ
حسدتها في فراديس الهوى القدسي عدن !
مزّق الوهم شراعي فهو للعاصف متن
وتولى زورقي الحيران لِلّجة يعنو
فتعال أهدِ أناشيدي يخلّد فيك فن
كم له في مسمع الاجيال قيثارٌ مرن !

***

فانثني مستعتباً والورد في خديه يبسمْ !
وبعينيه فتورٌ واحورار يتكلم !
والضياء الثرّ في جبهته الشهباء يحلم !
وانتشاء الزهر في مبسمه الرفاف برعم !
وانعطاف الغصن يغريه بدلّ فيترجم
هاتفاً : قد عيل صبري من جنون بك مغرم
انت في وجدك غيران فدع قلبك يحكم !
وذرِ اللوم فكم في اللوم للعاشق مغرم !
لا تشع في قلبي الآلام واليأس فتندم !
هو من مس الصبا ان ناوحته يتحطم !
انا لا ارضى بديلًا بحب فيك ملهم
يصطفيه شائق الابداع دنيا تترنم
غير انني اجتوي القيد وان عشت متيّم !

***

وهفا يغمز كفي بيد نشوى غريره
يد فتان على الاغراء والسحر قديره
وهو يومي بطرف يدع الفكر اسيره
ايه يا شاعر سر الكون كم تبغي ظهوره !
ولكم ترشف في الزهر اذا فتر عبيره
انظر النهر الا تعشق في النهر خريره !
وارقب الطير الا يشجيك ان اهدى صفيره !
واشهد الافق يجلّي بالتهاويل سطوره !
ودع الويل لمخبول الحجى عاف سروره
يكرع الحزن ليصمي في الاسى الدامي حبوره !
ويرى النور فيعشيه وكم ناغى شعوره !
فالصباح الغض مسحور اذا اشتقت سفوره !
ونسيم الحقل اعصار اذا كنت نذيره !

***

أأديب ، عجباً ! ، لا يقدر الفن جلالا ؟
قيل ان الادب الخالد قد خاب مآلا ؟
هو لا يشبع او يروى ، تراه عاد آلا ؟
وهو لا يدني قصياً ناله الوفر فمالا
وهو لا يخلب حسناء اذا ما الحب دالا
هم يريدون مجاني الفكر اعراضاً ومالا !
ضلة ! فالادب الصادق كم أحيا الرجالا !
كم تصبّى من جيوش وكم استهوى النضالا

ولكم جلجل في الكون صداه وتعالى
انها الآداب روح في البرايا تتلالا !
وسماء من رؤى الفتنة تستجلي الخيالا
ومعان صاغها الحب جمالاً واكتمالا !
كم سرت في النفس كالنغمة صهباء حلالا !

***

وتناجى بلبل يأسر بالشدو اليفه !
صادحاً كالطفل هيمان لانسام شفيفه
رنحته صحوة الفجر وقد زف دفوفه !
واذا الحب يوافيه ولا يرهب خيفه
ثم يفتران للوصل حليفاً وحليفه !
ويفرآن الى العش برقصات طريفه !
قلت : هلا نسبق الطير وقد جافى خريفه ؟
او لا تستقبل الحب بأنغام رهيفه ؟
وتنيل الوصل صباً بدد الهجر طيوفه
وعدا الشك عليه بأساطير مخيفه !
لا يعي العالم شكواه ولا يدري رفيفه
قبلما يلتفت الدهر ويصلينا صروفه !
فحنا كالكرم يدني لمفديه قطوفه !

***

ودنت منا شفاه ، وقلوب ، تتلاقى !
لحظة تختصر العمر انتشاءاً واعتناقا !
لا رقيب يحبس الخفقة او يدني الفراقا !
او عذول يزرع الافك ويستهوي الشقاقا
ووعى سمعي نداء منه ينساب انطلاقا
يسكب اللهفة والشوق حناناً واعتلاقا :
بعد لأي يسعد المسرى وتلتذ الوفاقا
فاحمد الصبر فكم يحلي لك الصبر مذاقا
واجتل الفرحة والحسن يناجيك ائتلاقا !
قلت : هل نطرب للقيا اذن ، بعد ، اشتياقا !
ونعيد الصفو تسمو كأسه صرفا دهاقا ؟
انا نشوان بنار الحب كم اهوى احتراقا !
قال : في الايك اذا شئت يحيينا اصطفاقا ؟ !

مكة — حسن عبدالله القرشي

الأمل الناحب

مهداة الى الاديب رياض طه

●

امل ينحب في صدري ، وصدري بيَ رحبُ
كلما شيعت ركباً منه أومأ ليَ ركب
آه ما احلى المنى ما اشرق الارواح تصبو
والهوى ملء الصبا والعيش مثل الحلم عذب !
انا ما لي ؟ ليس لي ذنب سوى أني ذنب
وأحبُ الحسن ، هل اذنب في اني أحب ؟
انا لي قلب فهل اشقى بأني لي قلب ؟ !
اتركوني استعد حلمي زمانَ الليلُ شهب
والمنى بيض وخلج الدم كل الخلج حب
وباضلاعي صيف ، آه خطب الصيف خطب
سمر العشاق سحر الهدب يدنو منه هدب
سكرة الاذرع بالاذرع ، والافواه ذوب
والهوى طيب على السكرة ، والاحلام سرب
يقظة النزوة في النفس واقصى ما يدب
سبحات الصحو ، هتف الحلم ، اشهى ما يحب !
اتركوني استعد حلمي فكم بي منه لهب
اذكر الايام ايامي فتصلى بي حرب
الهوى باللهو يغريني ، وعقلي عنه ينبو
كيف امضي ؟ كيف ؟ انحاز لاستهدي فاكبو
انا بين الحس والفكرة اعصار يهب
ما رمقت الحسن الا وتمادى بي غيب
اي غيب ؟ ، لست ادري انما رؤياه شهب
ودنى من رجف الوهم واشباح تخب
واكف تتخطى بي مدى ، دنياه رعب
هو وهم . انما يا ليت يبقى الوهم يربو
انا ارنو صوب قطب الحسن ، هل للحسن قطب ؟
امل ينحب في صدري وصدري بيَ رحب
كلما شيعت ركباً منه ، اومأ لي ركب

احمد ابو سعد

هيا معي

هيا معي ..! هاتي عينك ..! وامسكي بيدي الرغيبه
هيـا معي .. ! نستقبل الاحلام راقصة طروبه
ونعودها في وكرها الزاهي ، دنياهـا العجيبه
هيا معي .. ! نستقبل الآمال •زهرة رطيبه
ونعب من كاساتهـا الخمر المشعشعة السكيبه
هاتي عينك وانهضي . ! هيا معي ..! هيا معي .!
هيا .. ! الى الغابات نستبق الصباح الى رباهـا
صدح الهوى فيها .. في مسمعي رنين من صداها
هيا .. فقد سكب الشعاع رحيقه .. وشدا وتاها
وتراقصت لمح السّنا سكرى على وتر حداهـا
هيا .. نغنِّ الحب أغنية تُتيم من رواهـا
هاتي عينك وانهضي هيا معي ..!هيا معي .!
هيـا معي .. ! للجدول المنساب رقراق النمير
هزج ، كأن خريره همس الصبابة في الضمير
حاني الضّفاف ؛ مطوق بالزهر والعشب النضير
نشوان يهتف للهوى ، جذلان يطفح بالسرور
رقصت حواليه الحيـاة عـلى ترانيم الطيور
هاتي عينك وانهضي هيامعي ..!هيامعي ..!
هيـا معي .. ! فالحب يدعونا لروضته السنيه
هتف الهوى يا زهرتي ، وعلت أغـانيه الشجيه
هـاتي الرباب ، ورافقيني للرياض السندسية
واصغي الى نغم الهوى تذروه حنجرتي السخيه
هيـا .. !هبيني نشوة في ظل صحبتك الهنيه
هاتي عينك وانهضي هيا معي .!هيا معي .!
يا زهرتي ! خفق الشعاع ، وفيه لمح من ضيائك
وتبسم الصبح الجميل ، وفيه بعض من روائك
وترنم الكون الطروب ، وفيه لحن من غنائك
وتفتح الزهر النضير ، وفيه سحر من بهـائك
هيا .. ! هبيني نشوة تعلو بروحي في فضائك
هاتي عينك وانهضي هيا معي .! هيا معي .!
هيا معي .. ! يا بسمة في ثغر أحلام الليالي
يا خفقة في قلبي العاني ، ويا دنيا خيـالي
يا خطرة من سحر الهامي مرفرفة حيـالي
يا لمحة ، سكرت بها عيناي ، من ألق الجمال
هيا معي ..! هيا .. ! لوادي الحب سحري المجال
هاتي عينك وانهضي هيا معي .! هيا معي .!

تونس — احمد اللغماني

اعشاب

ضاحكي الداجياتِ .. يا أعشاب وارقصي .. جادت المنى والرغاب
لفك الليل ، فافرحي بدجاه فهيِ نعمَ الحلى ، ونعم الثياب
صفقي واهتفي وبوحي بنجوى خنقتهـا الانوار والاطياب
والبسي ، من قوادم البوم ، جنحا قبل ان يدهم الصباح العجاب
او فنادي الثعالب السودَ ، تنسج لك ظلّا ، يحنو عليه الغراب
بادري ، قبل ان تطل الدراري فتضاء الدُّنى ، وتجلى الشعاب
يوم تبقين ، كومة مـن هشيم مالها برقع ، ولا جلبـاب
وثراك الخبيث حمأة رجس يتداعى ، الى حماها ، الذباب
يا نبات الظلام ، ويلك يا اعشاب ، ضاع الهوى وضاع الشباب
لن تضيئي .. وقد غذتك الدياجي او تفوحي . وقد سقاك الضباب
لن تطيبي جنى ، ويمتصك الدود ، وتغفو عـلى ثراك الكلاب
ستموتين ، رغم أنفك ، يوماً وستفنى رؤاك ، يا اعشاب
ذعر الليل ، اذ تولته رؤيا ، ألق الشمس ، خولها ، ينساب
يا لليل ، تروعه صيحة الديك فتطوى المنى ويطوى الشراب
إيه ، اخت الظلام ، غني وميلي فلقد أُترعت لك الاكواب
سمري الليل ، ان قدرت ، وصوني عيشه ، قبل ان يحل المصـاب
ستره ، لو علمت ، ستر الخطايا فاحرصي ان تشده الاطناب
واذخريه ، اذا استطعت ليحميك متى جاءك الضحى الغلاّب
أسبلي جلده ، عليك مِجنـاً وليساعفك ، منه ، ظفر وناب
انت ما انت ، في اللقاء أجيبي حين تنهار ، حولك ، الاسباب
اتصولين فيه ؟ لا ، لن تكوني غير غاوٍ ، جنى عليه السراب.
لن تطيقي السنا ، ولن تستطيعي ان تفرّي ، من السنا وهو قاب
ستموتين ، من اساك ، اذا مـا اوشك الليل ، في غدٍ ، ينجاب
ستموتين ، قبل ان يطلع الفجر ؛ وتفري فؤادك النشـاب

حمص — نذير الحسامي

محاكمة نورمبرغ

بقلم الدكتور عدنان الخطيب

عضو مجمع الدراسات الجنائية في باريس

☆

كان « دون ديو دوفابر » – استاذ القانون الجنائي في جامعة باريز، ورئيس مجمع الدراسات الجنائية فيها ، وهو احد كبار رجال الحقوق والتشريع في فرنسا – القاضي الفرنسي في محكمة « نورمبرغ » الدولية ، فلما عاد الى منصة التدريس كانت « محاكمة نورمبرغ » الموضوع الذي اختاره ليحاضر به طلاب الدكتوراه ومعاهد الاختصاص للعلوم الجنائية والحقوق الدولية والقوانين المقارنة ، ولم تمض بضعة اشهر من سنة ١٩٤٧ حتى ظفرت «مكتبة الحقوق» من الاستاذ دوفابر بمؤلف جديد ، جاء ، رغم سرعة تأليفه وجدة موضوعه وحداثة الاسباب الباعثة على طرقه ، جليل القدر عند من يعنى بالدراسات الجنائية والمقارنة، وعلى جانب كبير من الكمال في عرضه التاريخي ودفاعه عن الواقع الذي كان خيالاً في تاريخ القانون الجنائي ففرضته القوى المنتصرة في الحرب الاخيرة قانوناً للاجيال القادمة* .

لقد تقدمت السن بالاستاذ « دون ديو دوفابر » ولكنه ما زال نشيطاً يعمل بحيوية الشباب الكامنة فيه لخدمة الفقه والقانون وتأدية رسالة العلم التي يحملها منذ ربع قرن ونيف على وجهها الاكمل ، فهو لم يتأخر ، رغم سنه ، عن تلبية الدعوات التي تسابقت الدول والمؤسسات العلمية ووجهتها اليه ، ليحاضر الناس عن « نورمبرغ » ، ولن يجد الناس اقوى حجة ، ولا ارجح منطقاً ، ولا اصدق شهادة لاثبات عدالة « حكم » من قاض لفظه بنفسه ثم جاء ليحدثهم حديث الفقيه الناقد، وليقوم بدوره « كشاهد اثبات » امام محكمة « الرأي العام » الكبرى ومحكمة « التاريخ » الاخيرة .

ما كاد هذا الاستاذ الكبير ينهي محاضراته في جامعة باريز في شهر ايار الماضي ، حتى استقل الطائرة الى نيويورك ، وما ان عاد من الولايات المتحدة حتى اجتمعت به في « مؤتمر بروكسل لتوحيد القوانين الجزائية » ، ثم سمعته يحاضر في « اكاديمية لاهاي » وانا ما زلت اذكر تلك الجلسة التي هيأها معهد الدراسات الدولية في باريز واتاح معها لجمهرة كبيرة من رجال العلم والقانون ، فرصة الاستماع الى الاستاذ دون ديو دوفابر يحاضرهم عن « محاكمة نورمبرغ » وانه ليسرني ان استطيع اليوم تلخيص تلك المحاضرة القيمة لقراء « الاديب » الذين قرأوا ولا شك كثيراً مما كتب عن تلك المحكمة الدولية العسكرية التي اقامها المنتصرون في النضال العالمي الثاني في مدينة « نورمبرغ » مهد «النازية الالمانية» لمحاكمة كبار خصومهم « النازيين » او كبار مجرمي الحرب على حد تعبيرهم السائد .

بدأ محاضرنا كلامه عن كفاية الاشهر التي مرت منذ صدور حكم « نورمبرغ » حتى يوم محاضرته ، لا لتقدير القيمة المعنوية، ولا لمعرفة حكم التاريخ الفاصل ، بالنسبة لقرار تلك المحكمة العسكرية الدولية، بل لبيان كيفية استقبال الرأي العام له وخصوصاً في فرنسا حيث كان موضع تعليقات مهمة باتجاهات متباينة . ثم وجه كلامه الى اولئك الذين يهتمون بايجاد عقوبات دولية ينتظمها قانون حديث قائلاً : (لقد كان اول اكتوبر عام ١٩٤٦ نقطة تحول في التاريخ ، اذ اثمرت لاول مرة تبعات مثيري الحرب وباعثي الرعب من جرائها في الناس ، جزاء وفاقاً ، ولاول مرة غدت «الميزة العامة» و« مسؤولية الدولة الجنائية » غير مفيدة، فانكشفت حماية الدولة عن رجالها ، ووقف هؤلاء لاول مرة ، وجهاً لوجه ، امام جرائمهم ، ثم اخذوا شخصياً ، بجرائر اعمالهم) .

* لقد رحب الاستاذ دوفابر بتعريب محاضراته واجاز لي ذلك وانا ارجو ان اوفق اليه في وقت غير بعيد .

ثم تكلم المحاضر عن هذا التطور في القانون الجنائي فيما يتعلق بمسؤولية رجال الدولة مؤكداً بانه لم يرتجل ارتجالاً، بل كان وليد الآراء التي نادى بها فقهاء القرون الوسطى ، والتي ازدهرت عقب الحرب العالمية الاولى ولكنها لم تعط الثمرة المرجوة منها ، وقال : (ما اثمرت هذه العقوبة القضائية اليوم الا اجابة لرغبات الوجدان الاجتماعي القديمة الصارخة ، ومجاراة لتطور القانون الدولي العام الحديث) .

ثم اخذ الاستاذ المحاضر يصف كيف قابلت الاوساط العلمية والفلسفية « حكم نورمبرغ » ، وهو الاول من نوعه في التاريخ، بشك عظيم ، وكيف نظرت الى « محاكمة نورمبرغ » كحقيقة املتها القوة وفرضها النصر ، قائلاً : (ان « حكم نورمبرغ» عند اولئك الشاكين فيه ، وليد الغلبة ، وما هو الا شطط في استثمار القوة والانتصار ، ما دام الخصم كان هو الحكم بنفسه) واردف يقول بلسانهم : (لقد سخر المنتصرون القانون لتفوقهم العسكري — التفوق الذي احرزوه بنفس الاساليب التي عابوها على خصومهم — ثم جاءوا يحاكمونهم من اجلها) ثم وصف الحزن الذي خيم على مدينة « نورمبرغ » والذي كان يدل على ان الاجرام ضد الانسانية لم يكن ميزة « الوطنية الاشتراكية » وحدها ، ولم ينس ان يشير ان تلك الهمسات التي يتناقلها الشاكون في عدالة « حكم نورمبرغ » يغمزون بها بعض الدول التي كانت من « الهيئة الاتهامية » وهي الى سنوات قليلة كانت تعتبر بنظر « عصبة الامم » دولة معتدية ؛ مما يعطي مثالاً واضحاً على تبدل وضع الدول بالنسبة الى قوتها ، وعلى القانون الذي وضع تحت رحمة السلاح في « نورمبرغ » ، ثم تساءل المحاضر بلسان اولئك الشاكين قائلاً : (من يدري ؟ .. الا يمكن ان يصبح هؤلاء الذين غلبوا على امرهم اليوم اصحاب الغد و« قضاته » !! ..) .

وبعد هذا العرض لآراء الناقدين اخذ الاستاذ الكبير يدافع عن العدالة التي انتخبت مدينة « نورمبرغ » من اجل تحقيقها ، مؤكداً ان مجرد كون الذين حققوها هم المنتصرون بالحرب بقوتهم، لا يعيبها ، لان القوة ليست من مستلزمات عدالة جنائية دولية فحسب ، انما هي تلزم من اجل كل عدالة، يراد تحقيقها مهما كان شأنها واستشهد بقول « باسكال » (غير مجدية عدالة لا تسندها قوة ، والقوة التي لا عدل معها مظلمة ، فلا بد اذن من وضع القوة متضافرة مع العدالة) ، تضافر العدل والقوة — قال المحاضر (هذا ما جرب عمله في نورمبرغ) .

واجاب المحاضر الذين طعنوا في جدارة القضاة وعابوا عليهم كفاءاتهم متسائلاً : (ومن يعتقد ان اقواس الحكام ومقاعد المحلفين لا يجلس عليها الا الذين لا عيب فيهم ! ..) ثم اردف يقول (الحقيقة . ان العدالة التي حققتها «نورمبرغ» كانت عدالة سياسية . عدالة انسانية، عدالة نسبية والعدالة الناقصة خير من فقدان العدالة كلها) .

ثم تكلم محاضرنا عن اولئك الذين عارضوا هذا النوع من العدالة ، وطالبوا بحلول اخرى تقوم مقام الاسلوب القضائي الذي تم على ايدي قضاة « نورمبرغ » فقال : (ان بعض الناقدين يقرون حلاً « بوليسياً » ، وهم يتهامسون دون ان يجرأوا على الجهر به واعلانه على صفحات المجلات ، انهم يريدون تطبيق اساليب « الغستابو » في تنظيم العلاقات الدولية ، وتدشين عهد جديد لسنة التمادي في الانتقام !! .

وآخرون يقترحون حلاً سياسياً يماثل الحل الذي طبقه الانكليز في اوائل القرن التاسع عشر مع نابليون الاول ،غير مقدرين الظروف التي تبدلت ، وفداحة الاضرار التي تقوم عليها تبعات من نحن بصددهم ، ان النفي المؤبد لا يكفي مطلقاً ، وكل عقوبة تمليها الاساليب السياسية ، مهما كان نوعها ، انما هي في نظري غير لائقة كالعقوبات « البوليسية » .

ويقابل هذا فكر بعض المثاليين بان الحلفاء كانوا يستطيعون الاكتفاء بفضح وتشهير واثبات جرائم الحكومة « النازية » في المانيا امام العالم ، وهذا برأيهم افضل عقوبة ادبية بالغة الاثر ، ان هذا التفكير ليدل حقاً على السذاجة والطيب ، وقد سبقت اليها معاهدة « فرساي » فحوت بعض الاحكام والمبادىء دون اية جدوى) ثم اردف الاستاذ قائلاً (ان فائدة محاكمة «نورمبرغ» التي لا نظير لها ، وهي الفائدة الوحيدة تقريباً التي لا يستطاع نكرانها ، هي انها اوجدت البرهان الساطع ، لا بل البرهان القاطع ، لا على الاجرام « النازي » فحسب ، بل على سبق التصور والتصميم على ذلك) .

واخذ المحاضر بعدئذ يتكلم عما انتجته عزلة جمهورية الولايات المتحدة وابتعادها عن التدخل في الشؤون الادبية ، من مصائب منبعثة عن الجهل المطبق الذي اصبح متقابلاً ، وقال : (نعم .. عندما نفكر — في تلك المصائب — كيف لا نرحب باندفاع الولايات المتحدة الثوري ؛ الذي اظهر الى الوجود آلاف الوثائق ومن بين عديدها وثائق معتقلي « شماند وهوسباغ » ومحاضر جلسات اركان الحرب المحتوية تفاصيل مشاريع « هتلر » العدوانية ، ومن بينها ايضاً مذكرات كل من « فرانك » حاكم بولونيا و« الجنرال

بودل » وحتى سجل المخابرات الهاتفية التي سبقت ضم النمسا « الانشلوس » والخاصة بكل من « غورنغ وربنتروب » .. ان هذا كله ليس مهماً كمصدر عديم النظير للمؤرخين فحسب ، بل ان فيه لدعماً واضحاً للروابط الوثيقة بين اميركا واوربا .. كل هذا كان يقضي بمحاكمة « نورمبرغ ») وبعد ان اكد المحاضر كفاية الاسباب التي جعلت « محاكمة نورمبرغ » ضرورة لازبة قال : (وانا مقتنع ، بانها – اي المحاكمة – جرت في افضل الشروط المعقولة المأمولة ، واني اعتبرها قد ادت الى مقررات مهمة من اجل تحديد الواجبات المتبادلة للحكومات والافراد في القانون الدولي ، وهذا على الرغم من اني لا اتسرع فاشارك اولئك المتفائلين الذين يرونها اول حلقة من حلقات اجتهاد يبعث على توطيد السلام العالمي الشامل) .

ثم اخذ الاستاذ «دون ديو دوفابر» يسهب بالكلام عن مسألتين مهمتين ، الاولى تتعلق بالاصول التي اتبعت في المحاكمة ، والثانية تتعلق بنوع الجرائم المسندة الى المتهمين .

لقد تكلم فيما يتعلق بالمسألة الاولى عن امور كثيرة اهمها :

١ – التأثير الانكليزي الاميركي في توجيه المحاكمة وابراز ذلك بالعبء الذي حملته انكلترة في هذه الحرب ، وبالدور الذي لعبته الولايات المتحدة من اجل النصر ، وبكون ميثاق محاكمة مجرمي الحرب انما وضع في « لندن » ، وبان المحاكمة اقيمت في منطقة الاحتلال الاميركي وتحت رئاسة قاض بريطاني ، كل هذا جعل اللغة الانكليزية المسيطرة على جو المحكمة وقوى كثيراً من النفوذ « الانكلو اميركاني » فيها .

٢ – اتباع « الاسلوب الاتهامي » اثناء المحاكمة ، وهو اسلوب انكليزي غير متبع في البلاد اللاتينية التشريع ، وفيه يكون ممثلو الادعاء العام بمثابة خصوم فحسب ، يقفون وجهاً لوجه مع محامي الدفاع وتجري المحاكمة على شكل مبارزة بين الطرفين امام القضاة الذين يلعبون دور الحكمين .

٣ – نظام الجلسات والدور الذي لعبته الشرطة الاميركية في المحافظة عليه ، واهمية نظام الترجمة الفورية الذي نجح نجاحاً باهراً ، ووصف دقيق لكيفية تطبيق هذا النظام .

٤ – حرية الدفاع وكيف انها حددت بوقت معين من اجل النظام العام ، وكيف روقب الدفاع وتحريت وثائقه خوفاً من الخروج عن الصدد .

٥– حالة المتهمين وكيفية متابعتهم للدعوى ، والمساعدة التي قدموها للمشرفين على تطبيق النظام من اجل عدم الاخلال به .

وتكلم الاستاذ المحاضر عن امور تتعلق بالمسألة الثانية اهمها :

١ – الدوائر النازية التي جرمت . ٢–تقسيم الجرائم المرتكبة اثناء الحرب الى مؤامرات ضد السلام العالمي والى جرائم ضد الانسانية . ٣– مفهوم الجريمة والمجرم والفارق بين الشريك والمأمور في القانون الدولي وفي القانون الالماني نفسه ، وكيف ان المتهمين حوكموا على جرائمهم ضد الانسانية التي ارتكبوها اثناء الحرب محاكمة المتآمرين الشركاء لا محاكمة المأمورين المجبرين .

وانهى الاستاذ الكبير محاضرته بكلام موجز بليغ عما اسماه « رسالة نورمبرغ » التي حملت اول التباشير من اجل الاصلاح المنشود ، مؤكداً وجوب ايجاد السلطة الدولية التي تملك حق العقاب واكمال النقص الذي ارتكبه واضعو ميثاق « عصبة الامم » قائلاً :



الاستاذ دون ديو دوفابر

(ان هذا هو الحل الوحيد لتفادي المطاعن التي وجهت بحق الى المحكمة العسكرية من انها محكمة جاءت بدعة ، ومن انها محكمة « جماعة الظافرين ») واردف يقول (يمكن ان تكون هذه السلطة القضائية محكمة مستقلة ، كالتي ذكرها مشروع سنة ١٩٣٧ باسم « محكمة الجزاء الدولية لقمع الارهاب » ، وهذا امر سهل كما يبدو لنا ، ويرجح غيره لبساطته اذ يكون بتزويد محكمة العدل الدولية بصلاحيات جزائية .

على انه يجب ان يكون لهذه السلطة قانون ، نعم يجب ايجاد قانون دولي عام ذي عقوبات جزائية يتفادى معه ذلك الاضطراب الذي شعر به اعضاء محكمة «نورمبرغ» اذ وجدوا انفسهم تجاه قوانين غير

عالم يشق طريقه

بقلم وديع فلسطين

☆

من الحقائق التاريخية المعروفة انه كُشف عدد من انواع الحيوان والنبات يربي على مليون نوع، وُصف كل منها وصفاً دقيقاً شاملاً.

ومن أعسر الامور درس هـذا العدد الكبير من انواع الكائنات الحية دون ان تفرز كل مجموعة متشابهة منها على حدة وتبوّب وتقسّم ليتسنى متابعة تحولات كل منها ومراقبة مناحي الشبه والخلاف بينها. ويطلق على هذا المنهج اسم « التقسيم الطبيعي لانواع الكائنات ».

وينهض معظم ما يجري الآن من تقسيم طبيعي لانواع الكائنات الحية على الابحاث النفسية التي كان لعـالم سويدي مبرز يدعى « كارل لينايس » فضل اجرائها.

ولد كارل في عام ١٧٠٧ في السويد، وكان النجل الاكبر لشاب من رجال الدين، ولكن انصراف والده عن شؤون الدنيا الى شؤون الآخرة لم يجعله ينأى عن الفتنة بالطبيعة ومجاليها. ذلك انه درّب نفسه على العنـاية بالزراعة وتنسيق الحدائق، واعد في داره حديقة احتوت على مئات من أنواع شتى من النباتات النادرة. فمـا عرف نجله كارل كيف يحبو، حتى كانت اول هواية غزت قلبه هي الخروج الى الحديقة واللهو بالزهر.

وفي صباه أهداه أبوه حديقة خاصة ولقّنه اسماء جميع انواع الورود التي عرضت له فيها.

وأوفد لينايس الصغير الى المدرسة، فلم يبد استعداداً لمتابعة الدرس طبقاً للمنهج المدرسي الموسوم، بل توفر على جمع الزهر بشغف مما حمل أصدقاءه وزملاءه على ان ينـادوه باسم « عالم النبات الصغير ».

وبرزت في كارل خـلة اخرى، هي اهتمامه بالعلوم الطبيعية والرياضية، حتى تميز على اقرانه واصبح استاذه الدكتور روتمـان يرمقه باعجـاب وتقدير ويسدي له النصح مخلصاً والتوجيه محسناً. ومما اشار به عليه استـاذه ان يدرس الطب ويتخصص في فروعه.

ولكن والدي كارل كانا حتى ذاك الحين يعدان نجلهما ليغدو رجل دين أسوة بأبيه، فما درى الاب بمشيئة الدكتور روتمان حتى اقرّه على رأيه، وعدل خطته. اما الام فثارت ثائرتها ورأت في تغيير الخطة أمراً إداً، فأخذت نفسها بالانطواء، وظلت سنوات لا تقدم للابن سوى معونة يسيرة مؤملة ان توفق الى حمل كارل على تعديل رأيه والانخراط في سلك اللاهوت. ولكن عزيمة لينايس كانت قد عقدت عـلى درس الطب، ومن ثم عني بدرس علومه بإشراف الدكتور روتمان مفيضاً في البحث، موغلاً في نهل موارد العلم.

وفي عام ١٧٢٧ التحق لينايس بجامعة في مدينة لند Lund ليدرس الطب درساً نظامياً. وكان يفتقر الى المال اشد افتقـار فوجد عند « الدكتور ستوباس » مأوى وفي داره في « لند » مقاماً، ولقي من هذا الرجل الفاضل عطفاً موفوراً حتى انه عدّ نفسه منذ اليوم الاول فرداً من افراد أسرة ستوباس وابناً من ابنائها.

اما كيف نشأت تلك الصلة الطيبة بين الطبيب والشاب. فلها رواية طريفة رواها لينايس بنفسه فقال:

كاملة وازاء قواعد قضت بالاتفاق عليها ضرورات الحرب الحديثة.)

ثم تساءل الاستاذ المحاضر عما اذا كان المقصود من هذا ايجاد نصوص دولية تكون واضحة بقدر ما يجب أن تكون كاملة، ومنها يتألف « قانون عقوبات عالمي » شعاره القاعدة الجزائية الشهيرة « لا جريمة ولا عقاب الا بنص »؟ واجاب قائلاً: (انى لا اعتقد بهذا، وارى ان الردع الدولي سيحتفظ بقوة الاشياء نفسها وبالطابع العرفي.

ان موجات الاجرام الفردي هي ضعيفة، الى حد يمكن معه، من سنة الى اخرى، ان يتنبأ بها وباشكالها وسعتها بصورة رياضية مؤكدة، اما اجرام الدول فهو كالموجات العميقة الخفية المجهولة في تحريكها السياسة الدولية، وان مجرد التفكير والحكم بتشابههما يعني تجاوز المنطق والتخلي عن التجرد، ومن هذا عملت المحكمة العسكرية الدولية على حفظ نفسها.

وهكذا فـان اساليب الردع الدولي لا تخضع للنبوءات او الادراك المسبق، انها « سر المستقبل »، المستقبل المحكوم، في عهد الذرة الذي اصبحنا فيه، للاكتشافات العلمية، ذلك المستقبل المرتبط بتقدم الديموقراطية التي سوف لا تؤدي، بكمال، رسالتها التهذيبية الا اذا عرفت هي قبل كل شيء كيف تكبح جماح نفسها وكيف تسمو بذاتها، وهذا كله منوط بمستقبل التقدم الادبي للانسانية).

ثم ختم محاضرنا كلامه بقوله: (ان الطريق التي خطتها « محكمة نورمبرغ » لاولي العزم من الرجال طريق واسعة ولكنها خفية).

دمشق — عدنان الخطيب

« لم تكن عندي كتب ، ولم اكن املك مالاً اشتريها به ، فأوعزت الى سكرتير الدكتور ستوباس بأن يقرضني في كل مساء كتاب من مكتبة الطبيب ارده اليه في صبيحة اليوم التالي قبل نهوض الطبيب من فراشه . غير ان والدة الدكتور ستوباس العجوز – وكانت حجرة نومها لصق حجرتي – تبينت ان مصباح غرفتي يظل الليل بطوله موقداً فخشيت ان ينشأ عن ذلك حريق يأتي على الدار ، ونبهت ابنها الى ذلك . وذات مساء ، وفي الساعة الواحدة من بعد منتصفه ، تسلل الى حجرتي الطبيب ظناً منه اني اغط في نومي وادع المصباح مشتعلاً ، فأدهشه ان يجد كمية من كتبه الخاصة على مائدة بالقرب من فراشي ، وادهشه كذلك ان يجدني ساهراً اتلوها » .

ولما اصغى الطبيب الى قصة كارل لينايس انقلب غضبه عطفاً وتعهد الصبي مقدماً له كل ما يعوزه من عضد .

وامضى العالم الشاب عامه الاول في « لند » وعاد بعده الى داره في عطلة الصيف وزار استاذه القديم في المدينة . فأشار عليه الدكتور روتمان بأن يدرس الطب في جامعة ابسالا لان منهجها يفضل منهاج جامعة « لند » ، ومن ثم التحق لينايس بتلك الجامعة في شهر أيلول من العام نفسه ، اي عام ١٧٢٨ .

ولم يكن مستوى التعليم في ذلك الحين ، حتى في جامعة ابسالا نفسها ، عالياً رغم ان الجامعة الثانية كانت خيراً من قرينتها في لند . وكان اساتذة العلوم المعزون في جامعة ابسالا رجالا طاعنين في السن لا يقوون على اجراء الابحاث العلمية ومتابعة التحقيق الاختباري التجريبي الاستطلاعي . ولكن لينايس وجد في الجامعة مكتبة كبيرة فجعل من نفسه « دودة في القراءة » على حد التعبير المعروف ، واخذ يكثر التردد عليها والانتفاع بكنوزها .

وفي تلك السنين الباكرة من عمره عرف طالب طب صغيراً يدعى « بتروس أرتدى » فآثره على سواه من الخلان ، وقربه اليه ، وغدا صديقاً يلازمه العمر طوله . وكان ارتدى يحب الكيمياء ويتعشقها بينما لينايس يهوى النباتات ويصرف اليها عنايته . ويقال ان هذين الصديقين الشابين ظلا لا ينقطعان عن اللقيا يومياً ليتداولا بحث علومهما وليتباريا في ادعاء الكشف والابتداع .

وفي شهر كانون الثاني التالي ، سافر لينايس الى ستكهلم ليشهد عن كثب تشريح الجسم البشري . ولم يكن طلاب الطب في ذلك العهد يرون اجراء مثل هذه العملية الا نادراً لان الطب لم يكن قد اصاب ما اصابه اليوم من ارتقاء وتقدم . اما الضحية التي كان مقرراً ان تشرح بمشهد من الطلاب ، فجسم مجرم ادانه القضاء وحكم عليه .

وكان على الطلاب ان يقتنوا تذاكر ليستطيعوا مشاهدة عملية التشريح . ولا ريب في ان كارل لينايس تعلم كثيراً مما شاهده ، غير ان رحلاته المتكررة الى ستكهلم ذهاباً واياباً استنفدت معظم ماله حتى امسى بعد ذلك مفتقراً الى المال يتلمسه اشهراً فلا يجده . ولم يجد مندوحة عن الاستدانة ليستطع ان يبتاع قوت يومه ، وظل اياماً يسير حافي القدمين الى ان شملته مرحمة عالم سويدي آخر يدعى « سلسيوس » فمد له يد المساعدة ونقله الى داره مترسماً خطى الدكتور ستوباس طبيب مدينة لند .

وكان سلسيوس هذا من اساتذة الجامعة الاجلاء ، تعلم اللاهوت والفلسفة ، وملك عليه التاريخ الطبيعي لبه ، واقتنى في داره حديقة غرس فيها الواناً نادرة من النبات .

اما كيف التقى لينايس بستوباس ، فلذلك قصة اخرى .

فقد كان الصبي جالساً في حديقة في أبسالا يدرس بعض انواع النبات ويفحصها وكان ستوباس يكثر التردد على هذا البستان لغرض مشابه ، فهاله ان يرى طالباً حدث السن عاكفاً هكذا على درسه ، فتجاذب معه اطراف الحديث ولم يحتج الى كثير من الفطنة ليدرك مواهبه وملكاته لان لينايس كان قد استوعب من المعارف النباتية رصيداً موفوراً .

وفي صيف العام عينه ، تحسنت حالة لينايس المالية تحسناً يذكر ، وأتيحت له فرصة اهتبلها واخذ يقوم بتدريس علوم النبات والطبيعة والكيمياء . ويساعد على تنسيق الحدائق النباتية . وازدهرت فيه هواية جديدة هي ان يطوف القرى المجاورة ويجمع النباتات النادرة اما منفرداً واما مستصحباً معه سلسيوس . واجتذبت محاضراته في علم النبات عدداً كبيراً من الطلاب وغير الطلاب لانه كان يسلك في إلقائها مسلكاً فريداً مستحدثاً .

ولما هل عام ١٧٣٠ كان كارل لينايس قد بلغ الثالثة والعشرين من عمره ، فكتب رسالته الاولى عن موضوع الجنس في النباتات (الانوثة والذكورة) فكان كتابه هذا سبباً في اذاعة صيته واشاعة شهرته في ربوع الجامعة وعده الاساتذة واحداً من خيرة طلابهم .

وازداد توفراً على درس موضوع تقسيم النباتات وتبويبها ، وهو الموضوع الذي جعل منه في ما بعد رجلاً واسع الشهرة ذائع الاسم .

واخذ ينهض بتدريس اربعة دروساً خاصة مدة أشهر ، ولما أوفى العام على نهايته عاد الى مدينته فقد تغيب عنها ثلاث سنين ونصف سنة .

عاد لينايس الى بيت ابيه وقد قرّ في نفسه ان يرحل الى «لابلند» حيث توقع ان يصادف عدداً كبيراً من أنواع الحيوان والنبات والمعادن التي لم يسبق للعلماء كشفها. وكانت مثل تلك الرحلة تعدّ في القرن الثامن عشر مغامرة غير مضمونة العواقب تستأهل استعداداً دقيقاً وتأهباً كبيراً. وتقع لابلند في شمال السويد، ونصف رقعتها يمتد في المنطقة المتجمدة الشمالية، والنهار فيها معتم شديد البرودة والليل طويل في الشتاء. وفي شهر يونيو (حزيران) يتكسر الثلج ويطفو على الانهر ويصبح الطقس دافئاً نوعاً أميل الى ان يكون فصل صيف قصيراً. وفي تلك المنطقة عدد لا يحصى من البحيرات والمستنقعات والانهر الطويلة والغابات الشاسعة. والسفر فيها عسير عدا انه خطر. امـا سكان لابلند، فهم قوم فطريون جلف يعيشون على القنص وصيد السمك.

ومع عدم استكمال استعداد لينايس، شرع في رحلته في شهر نوار (مايو) وكان المبلغ الذي رصدته له الجمعية العلمية الملكية هزيلاً جداً حتى انه لم يكف لابتياع جميع الحاجات الضرورية. واستعان في سفره بقدميه يسير عليهما وبجواده يمتطيه احياناً وبزورق يركبه آناً، ولم يكن يلقى في رحلته معونة الا من الادلاء الذين يصادفهم في طريقه.

وقد قاسى من الصعاب كثيراً، فنال منه الاجهاد والجوع ورداءة المناخ، ولكنه مع ذلك واصل مهمته فقطع نحو خمسة آلاف ميل ثم عـاد الى ابسالا في شهر اكتوبر (تشرين الاول) فاحتفى به رجال العلم حفاوة لا نظير لها، لانه غنم في رحلته خبرة علمية لم يسبقه اليها عالم، وجمع نماذج من الاحياء النباتية والحيوانية ليستعين بها في دراساته واستحق بلا ريب الثناء الذي اسبغ عليه يومذاك وفي ما بعد.

واذا اتيح لامرىء ان يتلو يومياته التي دوّنهـا عن رحلته، ادهشه ما يتلوه لان هذا الشاب الرقيق استطاع بقليل من النفقة ان يسوح هذه السياحة ويدون جميع هذه الملاحظات.

وانفق كارل لينايس عاميه التاليين في التدريس في جـامعة أبسالا، بيد ان هذا لم يصرفه عن متابعة دروسه وبحوثه. ووسع آفاقه بالتوفر على درس موضوعات المعادن والاطعمة مما حمل بعض اقرانه على الكيد له وابداء غيرة تجاهه وجفاء نحوه.

وفي شهر يوليو من عام ١٧٣٤ — وكان عمره ٢٧ عاماً — نهض كارل لينايس باعباء رحلة اخرى. ومع انه عاد بنتائج وفيرة، غير ان نتائجها عامة جاءت ادنى شأناً من النتائج التي حصلها في رحلته السابقة الى لابلند.

وأتم لينايس دروسه في جامعة أبسالا، محرزاً نجاحاً باهراً، وتخرج فيها في شهر كانون الاول من عام ١٧٣٤. ولكنه فوجىء بحالة لم يكن يتوقعها، ذلك انه وجد اعراضاً عن منحه ترخيصاً للاشتغال بالطب لان السويد لم تكن تبيح الاشتغال بالطب الا لخريجي الجامعات الاجنبية دون سواهم.

ولكن لينايس كان تواقاً الى العمل لكسب العيش بنفسه، ولا سيما لانه كان قد خطب كريمة طبيب ثري اتصل به في رحلته الثانية.

ولم يجد لينايس، كعادته دائماً، مالاً يمكنه من الالتحاق بجامعة أجنبية فالتجأ الى والد خطيبته ولقي منه استجابة طيبة. فقد منحه من بدر المال ما يكفيه للسفر الى هولندا حيث استطاع ان يظفر باجازة طبية في اسبوعين.

ولكن تحقيق هذا الهدف، مضافاً اليه استنزاف موارده المالية لم يحملاه يعجّل بالعودة الى بلده مباشرة. فقد عنّ له ان يطبع الكتب التي ألفها لتكون زاداً علمياً مشاعاً. وكما حدث من قبل، وفّق لينايس الى الاهتداء الى من يؤدي له نفقات الطباعة حتى اذا ما هلّ شهر دسمبر ظهر في مدينة ليدن في هولندا كتيب موجز من اثنتي عشرة صفحة عنوانه «نظام الطبيعة» كان سبباً في تحويل آراء العلماء تحويلاً تاماً في ما يتعلق بعلم الاحياء.

وقبل عودة لينايس الى بلده، أمضى ثلاث سنين متنقلاً في هولندا وفرنسا وبريطانيا حيث زار جامعة اكسفورد. وفي تلك الاثناء طبع ما يربي على اثني عشر كتاباً في علم الاحياء، وطبقت شهرته ربوع اوربا وعدّ عالماً اصيلاً في علم الاحياء. وعرضت عليه مناصب كبيرة في ربوع شتى من العالم، واغراه بعض هذه المناصب ولكنه أبى ان يقبل احدها لانه كان يروم العودة الى السويد للزواج.

وبعد زواجه، عين في العام التالي — اي في عام ١٧٤١ — في منصب شد ما تطلع اليه وغدا استاذاً لعلم النبات في جامعة أبسالا.

وقبل ان نورد شيئاً عن عمل لينايس كأستاذ في الجامعة، يجمل بنا ان نورد شيئاً عن كتيبه الذي طبعه قبل ستة اعوام في ليدن وعنوانه «نظام الطبيعة». فلم يطبع من هذا الكتاب في حياة مؤلفه اقل من ست عشرة طبعة. واول ما يستوقف النظر بشأن هذا الكتيب انه طبع لما كان عمر لينايس ثمانية وعشرين عاماً، وان نظرياته الرئيسية تبلورت في ذهنه «وتبرعمت» حين كان طالباً في الخامسة والعشرين من عمره.

ويرجع السبب في ظهور كتابه وهو صغير السن الى امرين : اولهما ذكاؤه المفرط في مراقبة الطبيعيات وفي استخلاص النقط المهمة من كل ما يلاحظه . ولا ريب في ان قوة ملاحظته نمت منذ كان يتدرب في حديقة والده . امــا الامر الثاني فهو الموهبة التي منحها ، وهي قدرته على تقسيم انواع الكائنات الحية الى اقسام وأبواب وفروع لتسهيل مهمة درسها وفحصها .

وقد قال لينايس اول كل شيء ، ان نظام تقسيم انواع الكائنات الحية ينبغي ان يكون اساسه معرفة اوجه الشبه المشتركة بين هذه الكائنات . فاستحدث اربعة تعبيرات علمية هي : المرتبة والقبيلة والجنس والنوع ، وهي تعبيرات يستخدمها العلماء اليوم لتؤدي عين المعاني التي وضعها لينايس لاداتها .

وينهض منهــاجه على التسليم بأن النوع الواحد يتألف من الكائنات الكثيرة الشبه حتى ليظن انها من اصل واحد . وقال ان النوع لا يتغير ولا يمكن ان يتغير سواء في مملكة النبات او في مملكة الحيوان .

وقد اوضحت بحوث العلماء الذين خلفوا كارل لينــايس ان انواع الكائنات الحية تغيرت فعلاً تغيراً تدريجياً وتطورت بمرور الاجيال . والقى اولئك العلمــاء عليه تبعة الدعوة الى مبدأ عدم تغير انواع الكائنات الحية .

ولكن من الانصاف ان يذكر ان جميع التجارب التي اجراها لينايس بنفسه دلته على عدد كبير من الخلافات او التطورات التي يمكن ان تطرأ على النوع الواحد . ووفق كذلك في انتاج انواع مخلوطة من النبات في حديقته الخاصة ، وبناء على تجاربه كتب في الطبعة الاخيرة لكتابه « نظــام الطبيعة » انه لا يمكن نشوء انواع جديدة من الحياة وان كان من المحتمل ان تتطور الانواع المعروفة فعلاً .

وهناك امر لا جدال فيه ، وهو ان لينايس أدخل النظــام على علم النبات وقضى على الفوضى فيه . فوضع نظاماً لتقسيم الكائنات الحية .

وعند اشتغاله بالتدريس في جامعة ابسالا انصرف العام بطوله الى ادخال تحسينات على نظام تقسيم الكائنــات الحية ، فأهمل الحديقة التي كان يعمل فيها عند طلبه العلم . ولكنه تنبه الى ما اقترفه من خطأ ، فعاد الى بناء حجرات زجاجية جديدة فيها ، وعيّن بستانياً جديداً ذا كفاءة ، واعاد تنظيم الحديقة ، فزاد عدد انواع النبات فيها من مائتي نوع الى ما يربي على ثلاثة آلاف ، منها انواع نادرة استوردها من مناطق نائية . كما انه اعد حديقة للحيوان الى جانب حديقة النبات .

واستطاع كارل لينايس ان يجتذب الى الجامعة عدداً كبيراً من الطلاب ، ونفث فيهم روح محبة العمل وعشقه . واوفــدهم الى بلاد نائية في رحلات تشبه رحلاته في صدر شبابه للبحث عن انواع النبات وملاحظتها وتسنى لاولئك الطلاب عاماً بعد آخر ان يتحدثوا عن استاذهم في اثناء تجوالهم مما اكسبه شهرة في الخارج بلغت الهند واميركا واليابان ، وبات العالم بأسره يعرفه عالماً راسخ القدم في جميع موضوعات التاريخ الطبيعي ، وكان كثيرون يسعون اليه طلباً لمشورته ، ولا يدانيه في تاريخ علم الاحياء الا نفر قليل ، لانه اسس معاهد ووضع قواعد عملية للعلوم .

ويمكن وصف كارل لينايس طبقاً لمظهره الخارجي فيقال انه رجل قصير مكتظ ، ليس بديناً ولكنه ربع القامة . تبدو مؤخرة رأسه كبيرة الحجم على غير المألوف . اما عيناه فلونهما بني تتنقلان في محجريهما سريعاً وتدلان على نفاذ بصر . ولكن عكوفه على درس دقائق النباتات والحيوانات اثر تأثيراً سيئاً في بصره وجعله قاصراً نوعاً ما .

وفي سن الرابعة والخمسين اضفي على كارل لينــايس اعظم شرف ناله في حيــاته ، ذلك انــه عين عضواً في مجلس الاشراف السويدي .

واخذ الوهن يدب في جسمه لانه اجهد نفسه في شبــابه وابدى نشاطاً غير محدود في عمله . ولزم في ايام عمره الاخيرة مرض اثقل عليه وطأته وأمسك الشلل بتلابيبه حتى اذا ما أوفى على الستين كانت ذاكرته تتداعى تحت ثقل الايام وفي عام ١٧٧٨ أتته المنية وكان قد بلغ السبعين ربيعاً .

ولما اقعد المرض كارل لينايس ، خلفه نجله في منصبه كأستاذ في جامعة ابسالا (وكان ذلك في عام ١٧٦٣) . بيد ان المنية لم تمهله فمات عقب وفاة ابيه بخمس سنين لا غير .

وبوفاة الاثنين نشب نزاع حول ملكية مؤلفات كارل لينايس والمجموعات العلمية التي خلفها واقتناها . ولم يسوّ النزاع الا بتدخل بريطاني ابتاع هذا التراث وآل الى ايد بريطانية .

وقد انشئت في لندن «جمعية لينايس» لتعنى بمجموعاته وكتبه وبترقية دراسة العلوم الطبيعية . وما فتئت هذه الجمعية تواصــل الى اليوم عملها .

القاهرة — وديع فلسطين

بين الصحو والذهول

وقفتُ لا أدري علام الوقوف
في شاطىء النيل قُبيل السَحَرْ
والكون غافٍ، ورؤاه تطوف
في همسات الريح بين الشجر
في رقصات النور نور القمر
على بساط الماء ماء النهر
في حَلَقٍ شتى صفوفٍ صفوف!!

***

وفي نقيق مستحب الصدى
على توالي أوجه والقرارْ
كجوقة تعزف في منتدى
بالريف، ألقي القوم فيه الوقار
قد شارك الصبية فيه الكبار
ينتهبون الليل قبل النهار
بين المزامير وبين الدفوف!

***

الكون غاف كله ما سواي
كأنني خارجه واقفُ!
في عالم قد صيغ لي من هواي
لا باطل فيه ولا زائف
ام أنني الغافي، وهذي رؤاي؟
زخرفها لي حلم طائف؟
وا طول بلواي اذن وا جواي!!

***

لا... ليس حلماً طائفاً ما أرى
اني هنا في يقظة واعيهْ
ها هوذا الكون احتواه الكرى
وذي رؤاه انطلقت ساريه
تطوف خولي منظراً منظرا
بين السماوات وبين الثرى
رائعة فواحة شاديه!

***

حسبي — انا الفانيَ — اذ أنعم
بلحظة من لحظات الخلودْ
الكون فيها نائم يحلم
قد مزق الحجب وفك القيود

ما القمر الوضاح .. ما الأنجم
ما النهر .. مما شاطئه الملهم
الا رؤاه انطلقت في الوجود !

***

يا ليت شعري — والسنا غامري
والخلد يشجيني بأنغامهِ
وحلم الكون على ناظري —
هل انا حلم بين احلامه ؟
قد عاد من غابر ايامه
او لاح من قابل اعوامه
اذن فاني لست بالخاسرِ !

***

وبينما النشوة في اوجها
كنت بها المشهود والشاهد
وقد تلاشت ثَم في موجها
فوارق الكثرة والواحد
وكاد فيما يحسب الساجد
يتّحد المعبود والعابد !
اذا بها تهبط من اوجها !

***

اذ روعتني بغتة صيحة
مني انطوى في اثرها المشهدُ
نار كوت رجليَ ؟ ام شوكة ؟
لا شوك من حولي ولا موقد !
ولاح شيء في الثرى اسود
يسعى كجانٍ فرّ يستنجد
كي يتوارى لائذاً بالحجر !

***

هل اقتل العقرب ؟ ما ذنبها ؟
وقد براها هكذا الباري !
ان لسعت رجلي فذا دأبها
شبت عليه منذ ادهار
انّ لهذي حرمة الجار
كانت معي في الموكب الساري!
شارك قلبي مجده قلبُها !!

***

آثرت عنها العفو .. لو لم يلح
لي من وراء الافق صهيونُ
ثم تراءى لي بوجه قَبُح
وبين فكيه فلسطين !
ومن حواليه الشياطين ..
فاختلط العقرب والطين !!
اذ دستها في الارض.. شراً بشرا!

***

ما لك يا صهيون منا مفر
يا لعنة التاريخ .. يا عقربُ !
تدنيسك المحراب لا يغتفر
وان سما في عفوه (يعرب)
سنقتل العقرب اذ نضرب !
وننسخ الزور بما نكتب !
ونصدق الوعد ولا نكذب
فيحمد المشرق والمغرب
تخليصنا منك سلام البشر !

القاهرة
علي احمد باكثير

شجر يثمر نساء

بقلم رشاد المغربي دارغوث

☆

عاد الرجلان الى عزلتهما ، وانصرفا الى عبـادة الله مرة ثانية ، بعد ان يئسا من هداية الناس واصلاحهم ؛ فما وطأت اقدامهما ارض (تاكاماتي) حتى التفت احدهما الى صاحبه ، وقال له ، وفي نبرات صوته الجهوري بحة الألم :

— هنا نفترق يا (ايمان) ! عدني بان لا تسعى لرؤيتي بعد اليوم !

فيجيبه الآخر وهو ينهنه دمعاً يخنق صوته :

— « اعدك يا (يقين) ، واستودعك الله ! »

وتاكاماتي جزيرة ضائعة في الشرق ، جنوب خط الاستواء ، في اقليم يجعلها اعدل بقاع الارض هواء : ربيع دائم ، وطبيعـة فتانة ، ولا مطر الا ما يحمله نسيم البحر من رطوبة ، تتكاثف في الليل وتتساقط ندى عطرياً . ثم شمس لا تدري ، واشعتهـا تلامسك ، أهي ألطف دعابة ام النسيم . وسماء لا تنفك زرقاء الاديم ، ما اشرقت الشمس ، فاذا أوت الى مضجعها ، وراء الافق ، انبثت على صدرها نجوم لا يرى لها في الارض بأسرها ما يرى لها في هذه الجزيرة من روعة وسناء .

ولم يكن في تاكاماتي بقعة خلت من شجرة او خميلة ، حتى شواطىء البحر نفسها ، والآكام . فهي جنة خضراء حلوة ، تعوم وسط الخضم العظيم كأنها زمردة لفظتها جنية ، قذى في عين المحيط الزرقاء . غير انها ليس لها سوى نهر واحد ، يجري من الشمال الى الجنوب ، مصفياً مياه الجزيرة بأسرها . فاذا قطع مسيرة ساعة ، غار في الارض ، عند حضيض تلة ، يزعمون ان فيها شجراً يثمر نساء . ثم يعود فيتدفق وراء الاكمة ، أغزر مياهاً ، وأحلى مذاقاً ، وانكه طعماً !

***

كان اول ما قام به (يقين) زيارة الاماكن التي كان يرتادها ، منذ غدا يدب على رجليه ، في هذه الجزيرة النائية . فقد كان يتلذذ بذكريات صباه حتى ما كان منها مؤلماً .

فها هنا ارضعته (ماما) قرب هذه العين ، ثم وردت المـاء وهي تنظر اليه كأنهـا تقول : « تعال افعل مثلي ! ذق طعم هذا السائل العذب كابني ! »

وهناك تحت شجرة موز ، ذاق (يقين) طعم الفاكهة اول مرة . فقد أكلت (ماما) منه ، وهو يناديها فتتصام عن ندائه ، فيقوم اليها مسترحماً ، فتشير اليه : « كل من هذا الثمر ؛ انـه اشهى من الحليب ! »

وهنالك قضت (ماما) نحبها ، بعد ان اسنّت وهزلت وضعفت : ذاك مشهد لا ينساه (يقين) ما عاش . فقد وقعت الى الارض لا حراك بها . يناديها فلا تجيبه ، ويهزها فلا تلتفت اليه . لقد ماتت ! حقيقة اضطرب لها (يقين) اضطراب المرء ، يفقـد في لحظة واحدة جميع ما له في الحياة .

ولكم ودّ (يقين) ان تمحو هذه الذكريات ما علق بمخيلته من صور الحياة المدنية ، فتطهره ممـا داخل نفسه من آثام الزهو والغرور . فقد عاش ما عاش ، راضياً بوحدته في هذه الجزيرة الحـالمة حتى جاءهـا (ايمـان). ولئن ادرك (يقين) بمجيئه حقيقة جديدة ، غـابت عنه



زمناً طويلاً ، فـانه قد شقي كثيراً بهذا العلم الذي لم يقم في نفسه ، ولا كان له في تحصيله يد او جهد . لقد ادرك (يقين) ان الارض اوسع مما حسب ، وان وراء هـذا البحر الذي يحيط بعالمه ، ارضاً اخرى ، « تعيش عليها كائنات تشبهه » . وعالماً آخر ، ربما كان اوسع من عالمه الذي يبدأ عند شاطىء البحر ، وينتهي في الكهف عند سفح الجبل . ولكن هذا السفير الذي ساقته التقادير الى مملكته المغلقة كان في الوقت نفسه رسول مجتمـع متفسخ ، ودنيا تحرص على فسادها حرصها على الحياة .

وما عتم الرجلان ان تفاهما ، بتلك اللغة التي كانت قبل كل لغة . بل سرعان ما تعلم (يقين) لغة (ايمان) فاصبح هذا يحدث صاحبه بما كان من امره ، وامر قومه الذين فارقهم ، وما يعانونه من أزمات ، في الاقتصاد ، والروح ، وفي البيت والمدرسة ، ببيان رغب الى يقين ان يصل اليهم ، بحرارة واخلاص حملاه على ان يتمنى اصلاح حالهم .

وكان ليقين ما اراد اهبط وصاحبه بلاد الناس . واخذا يتنقلان في ربوعها الفيحاء ، سيراً على الاقدام حيناً ، وعلى بساط الريح حيناً آخر ، والناس في امر هذا المخلوق العجيب في شغل شاغل !

يقول واحدهم لجاره :

— « هل رأيت هذه الاعجوبة الخارقة ؟ انه ابن ظبية ! »

فيستدرك الجار مصححاً :

— « بل انه ولد من غير ام واب ! »

ويروي ثالث معقباً :

— « ارضعته الظبية حتى بلغ السابعة من عمره ! » .

ويتمتم رابع سادراً من عجبه :

— « انه يخاطب الحيوانات فتخاطبه ! » .

ويهمس غيرهم ، مأخوذاً بآيات السماء :

— « كان يلبس ريش نسر ، فهابته الحيوانات والطيور ! » .

ويقول آخرون مؤمنين :

— « هذا ولي من الاولياء ! هذا قديس من القديسين ! » .

ويصرخ الجميع متواكلين !

هذا هو الامام المنتظر ! .

وكانت النساء اشد اعجـاباً بهذا المخلوق الغريب ، انه فتى جميل فحل في الرجـال ، وخشن في البشر . فتقول شقراء ناعمة لصويحباتها :

— هل رأيت وجهه الاسمر ، وقد زانه جبينه الرحيب ؟ .

وتتمتم اخرى معجبة : انه شاب جميل ! .

وتهمس سمراء حالمة : — « وقوي متين العضلات ! » .

وتتمنى احداهن : « ليتني احظى بلثم يده » ! .

فتستدرك ثانية بمرح متحفظ : — « بل ليتني احظى بقبلة . . من فمه ! » .

وتسر احدى النساء في اذن صاحبتها ، تسألها بحياء بادر :

— هل له قلب . . كما للبشر ؟ .

ويتساءلن جميعهن ، دون ان يفصحن عن هذا السؤال :

— « ترى هل يتزوج . . كالرجال ؟ » .

لم يكن هذا كله ، ولا ذاك وذلك باسرهما لتحقق ما كان ينشده (يقين) من هداية الناس ، والارتفـاع بهم من حضيض المادة الى سمـاء الروح ، فيتصلون بذات الحق ، وتطهر نفوسهم وتطمئن قلوبهم ، ويدق حسهم ، ويسمو ذوقهم . فداخله من ذلك ضيق ، انقلب الى تبرم ، فيأس ؛ وهو لم ينقض على وجوده بين الناس سوى عام وبعض عام ! .

وهكذا عاد (يقين) من حيث اتى ، واعتزل الناس ، وما هم فيه ، حتى صاحبه (ايمـان) ، اذ فارقه في شرق الجزيرة ، واقام منفرداً في غربها .

استعرض يقين هذا الماضي القريب ، في لحظات ، وهو ينزع عن جسده تلك الالبسة التي حمل على ارتدائها بين الناس ، ليستبدل بها ثوباً من الياف الاشجار واوراقهـا ، راح يصنعه بيديه ، وهو جالس في احدى زوايا الكهف . ثم انصرف الى عبـادة ربه ، بحرارة مؤمن لا تحول بينه وبين الله حاجة يبتغيها عنده ، ولا يشغله عنه غرض دنيوي يسعى اليه .

ولكن (يقيناً) لم يجد سبيلاً برغم تعريه من كل زخرف المدنية وطلاء الحضارة ، الى طمأنينة قلبه الاولى ، ولا طريقاً الى صفاء نفسه القديم . انه لا يحس اليوم ذلك الهدوء الذي كان يعمر صدره ، ولا يستشعر ذلك الرضا الذي كان يغمر روحه ، فيقول لنفسه يناجيها :

— « ترى اي حائل يقف بينك وبين ربك ؟ عزلتي اليوم تامة كعزلتي بالامس . وايماني اليوم هو ايماني القديم فلمَ اشعر كأن قيوداً تشدني الى هذه الارض ، وحبالاً تربطني الى هذه المادة؟ مالي احس كأنني في قفص ، كلما حاولت الافلات منه ، تجمعت قضبانه ، تسد عليّ كل فرجة ؟ أهو الزمان قد فسد ام هو المكان ؟ » .

وما يصل يقين الى هذا الحد من نجواه حتى تأخذه سنة من النوم ، فيرى طيفاً يهبط من السماء ، منقضاً كالشهـاب حتى اذا حاذاه ، اخذ برأسه يؤرجحه كرقاص الساعة . ثم قال له بصوت تردد في اذنيه كالرعد القاصف :

– « يا يقين ! ما فسد الزمان ولا تغير المكان ، انما فسدت انت وتغيرت ! » .

فينتفض يقين وينتصب مـذعوراً ، يتلفت ذات يمينه وذات يساره ، ثم يكب على وجهه مغشياً عليه ، يهدر هدير الجمال . فلا يصحو الا والضوء يزحف من وراء الافق متباطئاً يلهب جوانب السماء . فيستيقظ الكون على نغم تنافرت الحانه تنافراً رائعاً : فخيل تصهل ، وديكة تصيح ، وشياه ترغو ، وبقر تخور .

ويقين يردد كمن يهذي في صلاة هـادئة لا تنسجم مع هذه الصلوات الصارخة :

«اجل لقد تغيرت انا وفسدت! فهذه الكلمات عبء يثقل صلاتي، وهذه اللغة مادة تفسد الروح ! رباه أنسِني مـا علمني البشر ، كي يخاطبك قلبي دون لساني ،وتسمو اليك نفسي دون حائل بينها وبينك!» .

لكن تلك الذكريات لم تبرح تتابعه حيثما كان وأني توجه . فهي تتدافع في نفسه كامواج البحر لا تهدأ ، وهي تتبعه كالاشباح لا تكلّ . فيقول بحرقة مريرة :

– « يا لله هؤلاء الناس ! يصبحون كما يمسون ، همهم مـال يجمعون ، او لذة يقتنصون . انهم يتخذون العلم شباكاً كما يتخذون الدين ستـاراً . . ترى كيف يرضون عن الايام تمر بهم عجلى ، متشابهة ؟ وكيف ينعمون بالحياة ، وهم في نزاع معها ، وفيما بينهم ؟ وهذه الدور التي يسكنونها والقصور التي يتفاخرون بها ، كيف يجدون فيها الحرية والانطلاق ، على ما فيها من اسبـاب الاسر والترف والنعيم ؟ وتلك الاطعمة التي يحضرونها ، كيف يقتاتون بها وقد تغير لونها وفسد طعمها ؟ . . . » .

ذكريات لا تبرح مخيلة (يقين) مشغولة بها ، أصلى وقعد ، ام نام وتهجد . وجدل لا ينتهي عقل (يقين) منه كلما خلا الى نفسه ، او فكر في يومه وامسه . فمـا كانت تلك الا لتزيده احساساً بالصلة التي تربطه الى هؤلاء الناس . ولا كان هذا الا ليزيده شعوراً ببغض الحياة التي اختارها في موطن عزلته .

ويتمخض ذاك الاحساس عن تبرم بالعزلة ، وملل من الوحدة . بل سرعان ما ينقلب هذا الملل حنيناً الى الناس ، ويعيد ذاك التبرم شوقاً الى . . مفاسد مجتمعهم ! فيستيقظ (يقين) ذات يوم ، وفي وعيه ، من ذلك الصراع في اللاوعي ، رغبة ملحة ، كتلك التي يجدهـا الظمآن الى الماء ، المقرور الى الدفء . رغبة في انسان يحدثه ، وحنين الى بشري يكلمه ! فيحاول يقين ان يزجر نفسه فتثور ، وان يكبح جماح اعصابه فتلح .

وها هو يسير برغم تلك الارادة متجهاً من غربه المنعزل نحو الشرق المرصود ؛ تقوده قدماه بالرغم من عقله ، وتجره عـاطفته كرهاً وغصباً ! بل انه يسير وفي لاوعيه سرور يجد له في اعصابه انبساط الاكتفاء ، ورضاء الاماني المحققة . فما يصل الى مقربة من النهر حتى يتم لارادته التغلب على هواه فيرجع (يقين) من حيث أتى ، يشدد عزمه بصلوات يتلوها ، واوراد يكررها ، والصراع في نفسه بين الفطرة والعقل على اشد ما يكون الصراع في النفس البشرية .

وفجأة يتعالى وقع اقدام ، يصل الى اذني (يقين) فينتفض كالحالم راعته رفة جنـاح او حفيف اوراق . ثم يركض فيختبىء وراء جذع شجرة ضخمة ، كأنها الاكمة في السهل المنبسط ، ويسترق النظر ، بحذر الذئب وخشية الطائر وريبة الجاني ، فاذا به يرى ما تعشى له باصرتاه ويخفق قلبه : هذه حواء جديـدة . . تداعب رضيعاً تجمع على صدرها العاري ، كأنه قطرة ندى في قلب وردة ! وهذا هو (ايمان) بنفسه ، يخرج من ماء النهر ، ليلاعب الطفل ، وكأنه انقلب بدوره طفلاً عابثاً .

وما يعي (يقين) الا وهو فوق رأس صاحبه القديم ، ينظر اليه ، والى الطفل ، والى امه ، بعينين جاحظتين ، وفم مشدوه ، وجسد سادر . فيلتفت (ايمان) مذعوراً ، وتنقلب المرأة حيية مجفلة ، ويصرخ الطفل جازعاً . ولكن دمعة تحجرت على مقلتي (يقين) ، ودمعة اخرى سالت على خديه ، كانتا ابلغ من كل مقال . فأمسك ايمان بيد (سيده) يقوده ، ويقين يتبعه مستسلماً كالظل الهادىء ، حتى وصلا الى حضيض التلة العجيبة ، وهناك أشار ايمان الى شجره السحري ، وقال وهو يبتسم ، ويربّت كتف صاحبه .

– « هناك يا يقين تجد نصفك . . . »

حتى اذا تسلق (يقين) احدى الشجرات الفاتنة ، وقطف ثمرة من اثمارها الحلوة ، تمتم ايمان ، وكأنه يتابع فكرته الاولى :

– « . . . وتجد نفسك يا ابن الانسان ! »

رشاد المغربي دارغوث

الذهنيتان الشعريتان الاموية والعباسية

بقلم نسيم نصر
استاذ الادب العربي بالكلية الوطنية بالشويفات

في الغزل:

لما كان الشاعر الخالد يستوحي ذهنيته الابدية من جو البيئة التي يحيا فيها ومن روح العصر التي تفرض خصائصها على الاتجاهات المسلكية والنزعات التجريدية ، وجب على الباحث في القيم الشعرية ان يبني بحثه على اساس من فهم الذهنية الادبية للعصر الذي عاش فيه الشاعر المستهدَف للدرس، مدعماً هذا الاساس بعوامل الاقاليم وانعزال المكان او تماسّه بالبلاد الاخرى .

لذلك نرى ان قرب العصر الاموي من الزمن الجاهلي وبقاء الناس في عهد الامويين نزوعين الى البداوة وتحدي الشعر الجاهلي مسامـاة به واستمرارهم في نحو من البلاغة العربية الصرفة كانت بواعث تدعو الى التمسك بالخلاق البدوي العفّ مقروناً الى الطبع الاسلامي الدمث متأثراً بالفصاحة القرآنية النـابية عن التراكيب الغريبة والكلام الحوشي .

وعلى الرغم من كثرة اختلاط العرب بالاعاجم ، واخذهم ، اي العرب ، بأسباب الحضارة ، نرى ان هيبة العفاف تزعزعت في الصدور لكنها لم تنزل الى درك يستوي والدرك الذي نزلت اليه في عهد دولة بغداد ، ولم تتلاشَ المحافظة التي فرضها الخلفاء الراشدون على عروبة الدولة او استعرابها كل التلاشي . فالغنائم والسبـايا ، واكثرهن من الفرس والروم ، لم تنزل بالعربي الاموي الى درجة المستمتع الخليع ، ففلسفة ابيقور[1] اليوناني بدت اقرب الى المزاج العربي من الفلسفة المزدكية[2] الفـارسية في اول عهد امتزاج العرب بالفكر الاعجمي وتلقحهم بالمسالك والنزعات الغريبة . وان سياسة معاوية في اغراق بعض ابناء الصحابة بالعطـايا ورفع بعضهم الى اعلى المراتب متعمداً إشغالهم باللهو واللذة عن السعي الى استرداد الملك المسلوب منهم لم تكن لتصرفهم عن جوادّ السيرة المرغوب فيها الى مزالق الاخلاق ووعثاء الريب ، انصراف بعض احفادهم في عهد بني العباس فكـانت دمشق اول حاضرة عربية أقدم شعراؤها على التشبيب بغير حبيباتهم واصبح الجمال النسوي موضوعاً شعرياً لا يستحق ، في نظر خلفائها ، شعراؤه الغزلون القصاص الذي كان ينزله بهم الخليفة عمر ، مفخرة الحكم العربي على الاطلاق .

وكان امام الغزل في الاسلام جميل بن معمر معـاصراً لعبد الملك بن مروان (الخليفة الاموي ، المعيد للخلافة الاموية هيبتها ونظامها) موطِّئاً للشعراء التشبيب بالمرأة على نحو عاطفي جعله في مجموع ما قاله من الشعر في حبيبته بثينة ، « امـام المحبين » غير منـازع . وهذا الشاعر في نظري خير ممثل للغزل الاموي ، ذلك الغزل الذي نبذ التقليدية الجاهلية وسما الى الموضوعية فلم يعتمده الشاعر الاموي درجة يرقى عليها الى قصده في منظومه بالقدر الذي اعتمده فيه الشاعر الجاهلي . وفي مثل قول جميل :

يموت الهوى مني اذا ما لقيتها ... ويحيا اذا فارقتهـا فيعود

دليل على اشراك الشاعر قلبه في ما ينظم وتخلقه بالعفة التي كانت سدى نسيج الخلاق العربي في ذلك العهد .

وربما كان الركون الى هذه الناحية العربية الخلقية ، هو الذي اوسع آفاق المنظوم الغزلي فكان للادب العربي مؤلهوه الكثر ، الذين اختلطت على المطالع ، وحتى على الدارس ، أساليب شعرهم ، اذ ضربوا فيها الى مثل اعلى في الحب ، فلقيس بن ذريح لبنـاه ولجميل بثيناه ولكثير عزته ولعروة عفراؤه ، ولهم كلهم ، كما لسواهم من طرازهم ، ذوبان الذات في الهيام بالحبيبة .

ولقد فشا في هذا العصر اصطناع لهذا النحو من الشعر كثر اصحابه كثرة ضاقت بهـا ذاكرة الرواة فنسب الى المطبوعين الغزلين ما راق من شعر المصطنعين، ونُحل لاشهرهم رواية بين الناس مجنون ليلى ، كثير من شعرهم في « ليلياتهم » . واعترافاً بهذه الحقيقة العاطفية « الغنائية » نقول على سبيل المثل : « كل يغني على ليلاه » .

والذي أراه داعية لبروز عمر بن ابي ربيعة بين شعراء الغزل في ذلك العصر هو جعله هذا النوع من الشعر حـادياً يسير في ركاب

(١) فيلسوف يوناني (٢٧٠ – ٣٤١ ق . م) أثيني تلميذ كسينوكرات (Xéno - crate) معلن فلسفة « المتعة سيدة الخير الانساني » على ان تكون خيراً في ذاتها . (٢) المزدكية فلسفة فارسية تغلب الانسان الاباحي على الانسان العفيف ممثلة ذلك في اسطورة « قهرمان وأرموز » .

قبر في المرج

☆

الى عالم الأحلام تهفو سرائري ..
ويسري ، على صوت الصبابة ، خاطري
فتسكرني الذكرى ، وتسكب وحيها
على وتري الظمآن ، فيض مشاعر
ويرسم وهمي صورة عبقرية
أرى في محانيها ملامح غابري
ارى من محياك الجميل خيالة
بها ، تتراءى في العهود السواحر
وأرنو الى طيف يفيض ابتسامه
ذبولا على كف الفناء الماكر
فتُعول آمالي ، ويجتاحها الأسى
وأذهب في بحر من الشجو غامر
وتمشي خطاي الساردات أخيذة
الى قبرك الباكي .. وتدمى نواظري
ويعبر بي ركبُ المساء .. ويلتقي
بي الليل .. وحدي .. في المروج السواكر
كأنيَ .. لما غرّبتك منية ..
تغرّب بعضي في سحيق الدياجر
اذا ما غفا قلبي أهاب به صدى
ليالٍ تلاشت في المآسي الدوائر
يرفّ على روحي حزين غنائه
فيبعث فيها مستنيم الاعاصر
ويهتف بي : لا تبكها ! كفكف الرؤى !
لقد كان ما ناغيته حلم شاعر !

بغداد محمود البريكان

الجمال مستحثاً نزوات الصبا مستفزاً مشاعر الشباب فجاء شعره اغاني هوى واقاصيص غواية وصور مغامرات ، في حين جعل العذريون الاعفاء من الغزل موضوعاً ، يوشك ان يصبح فلسفياً ، في مداورة القلب البشري يتأرجح فيه الهوى بين ارساله في ميوله وكبته قبل بلوغ غايته .

ولئن كان شعر عمر بن ابي ربيعة صادف شيوعاً اوسع ورافقه علوق بالذاكرة ابلغ مما تم لشعر جميل فلا يعني ذلك ان المرأة الاموية كانت قد خرجت عن عفافها كل الخروج ، ولا يصح ان يفهم من ذلك ايضاً ان اميرات الحج والحسان الكريمات المتحدث عنهن قد خلعن العذار وانصرفن الى الاستهتار بالحصانة الجنسية . بل يجب ان نلتمس لهن عذراً في استساغتهن شعر عمر ، وهذا العذر ميسور في ما كان للغزل من شيوع في ذلك العهد وفي ما خرجت اليه المرأة من نزعة الى الادب الشعري رياضة للخيال وغناء للعاطفة .

وان لم نطمئن الى هذا العذر فلنا بحفاظ العائلات آنذاك على الشرف الموروث ، واستمرار المرأة ، تربية ونشأة ، في انسياقها الى الآداب المسلكية عذر آخر لا يرد . فما يهوي بالحسناء الى مهاوي الخلاعة يمسكه عنها التراث الخلقي العائلي الذي كان ما يزال مهيمناً على الجوانح الجنسية التي تهوي بالمرأة لقرب عهدها بعادة الوأد من جهة وزهدية الدين باللذة من جهة اخرى .

ويستطيع الباحث ان يتناول قيمة الشاعر الذاتية بالتقدير فيدرك ان نبوغ الموالي والشعوبيين في الشعر لم يكن عاملاً هاماً في توجيه الشعر عامة والغزل خاصة ، في عصر بني امية ، بالقدر الذي امسى له في عهد بني العباس ، ففي بغداد وغيرها من حواضر الدول التي ازدهر فيها الادب العربي ، مرتبطة بالعاصمة العباسية او منفصلة عنها ، نشأت مناهج من الغزل يندى لها جبين الادب حياء ، ولولا ما في بعضها من دهاء الفن الشعري وما يلقيه هذا الدهاء على شناءة المعنى او الموضوع لقلنا ان الاعراض عن هذه المناهج الخطرة خير من الاخذ في درسها ، ولا سيما في المدارس .

وكما ان خروج الغزل الاموي عن طوق التقليدية الجاهلية كان فارقاً كبيراً له عما تقدمه ، هكذا كان دخول الغزل العباسي في المادية مميزاً له محسوساً اقام الحد بين غزلي العصرين الاموي والعباسي .

ومثل غزل بشار بن برد وابي نواس أهاب بالخليفة المتساهل في امر الدين والاخلاق الى التشديد في شذب بعضه والعقاب عليه ، خوفاً على الحصانة الجنسية من الانهيار بمعول الغزل الخليع .

وخلاصة القول ان الغزل العباسي مُني بانحطاط قدر الشاعر شخصياً الى جانب تلوثه باباحية المذهب الشعري ، فابن ابي ربيعة غلب الفن في غزله على المادية رغماً عن خلاعة الموضوع احياناً ، وجاءت المادية غالبة على كل ما سواها في معظم الغزل العباسي على الكره من روح العبث الطاغية على ابي نواس وبشار وامثالهما من شعراء الدولة العباسية .

نسيم نصر

الكفاح من اجل الحب

بقلم يوسف الشاروني

« الى هـ . »

☆

نحن نخطىء حين نظن ان مجرد الرغبة في الحصول على الآخر يمكن ان نسميها باسم الحب . ان اللحظة التي فيها تستيقظ ارواحنا لنحس بحاجتنا الى انسان آخر يشاركنا كفاحاً واحداً في الحياة ، هي اللحظة التي نتهيأ فيها للحب . لكن بين مجرد هذا التهيؤ وبين الحب خطوات لا بد لها من الكفاح من اجل ان نقطعها كاملة وناجحة .

فمن هذه الغربة التي تقف بين كل شخصين يتلاقيان في الحياة حتى اللحظة التي يلتصق فيها جسداهما معاً ، توجد خطوات ليست طويلة ولا شاقة بالقدر الذي نتوهمه ، لكنها تحتاج الى كفاح والى لباقة ، والا ضاعت كل جهودنا في اللحظة الاخيرة .

فنحن حين نلتقي بشخص ما ويكون لدينا هذا التهيؤ الطبقي المقدس للحب ، ونحس بأننا نريد الحصول عليه ، ندرك تماماً اننا لا بد ان نجعله هو الآخر يريد الحصول علينا . ومن اجل هذا يبدأ كفاحنا . والحصول المتبادل هنا هو الذي يفرق بين الحب والحالات الاخرى التي تتدرج ما بين شراء المرأة (كما كان يحدث في مجتمع القبيلة وكما لا يزال يحدث حتى اليوم — او ربما شراء الرجل) وهذه العاطفة المتأججة الحزينة الناتجة عن احساس دائم بالتهيؤ لحب شخص لا نحصل عليه .

ونحن حين نلتقي بهذا الشخص ، قد ندرك في وضوح ضرورة وجود هذا الحصول المتبادل ، وهو ادراك قد يكون من النظرة الاولى وقد يكون بعد سلسلة طويلة من العلاقة والممارسة لكننا ندرك ايضاً أننا لا يمكن ان ندفق عليه مشاعرنا وعواطفنا مرة واحدة وفي اية لحظة ، بل لا بد من الانتظار والصبر ، ثم الاستمرار والاصرار . .

ونحن نبذل هذا الجهد من اجل ان ترتفع الغشاوة اولا بيننا وبين الآخر ، هذه الغشاوة التي هي مجموعة من التقاليد ومن الماضي الخفي الممتد حتى الطفولة ، ومن الآمال والاحلام التي يملكها كل شخص بحكم انفراده وعزلته . ونحن نزيح هذه الغشاوة في رقة ولباقة حتى لا نصطدم بما يمكن ان يقف عقبة في سبيل الوحدة التي نهدف اليها . ولهذا فنحن نعد انفسنا لكافة الاحتمالات ، ونصادر من اول الامر اننا سنبلغ ما نريد .

ونحن نجيد التوهم حين نتخيل ان العالم والغرباء يستطيعون ان يشاركونا أفراحنا ومآسينا ، وعندما نتخيل ان ثمة انساناً واحداً رقيقاً ولطيفاً جداً سيستمع الى أناتنا ونحن نضع رأسنا المهموم في حضنه الحي الخافق الدافىء . لكن الى اي حد يصمد هذا التوهم ؟ .

علينا ان ندرك أولاً في وضوح ان الآخرين يشبهوننا ، ولهذا فهم يتمنون ، مثلما نتمنى ، إنساناً يحمل عنهم بعض ما بهم . ونحن ندرك هذا حين نرى انساناً يأتي مطمئناً الينا واثقاً فينا شاكياً لنا وطأة تثقله ، لكن هذه اللحظات لا نرحب بها كثيراً ، بل نحن نبحث عمن يكون المعجزة في حياتنا ، عن ذلك الساحر الالهي الذي سيشفي امراضنا بلمسة او بسمة . ونهيىء دائماً انفسنا لمجيئه ، حيث نجد في هذا التوقع تعزية وسلوانا .

ومن تقاليد هذا المجتمع الذي نعيش فيه ان للرجل فرصة اوسع مما للمرأة ، فله ان يحصل على من يريد تبعاً لقيمه وتقديراته وعواطفه ،

اما المرأة فهي لا « تختار » الا في دائرة من يختارونها (ولو ان هناك بطبيعة الحال حالات لا تخضع للسياق العام) . ولا شك في ان المرأة تحس بنوع من الغبطة الخفية كلما بدا لرجل ان يريدها ، حتى ولو لم تكن هي لتفضله او تقبله في حياتها ، يكفيه انه جعلها مرغوبة ومحبوبة ! اما الرجل فان سروره العميق يبدأ بعد ذلك حين تعبر له المرأة عن تجاوب عواطفها مع عواطفه .

لكن الامور لا تسير سهلة ، فالمرأة تريد ان تستوثق اولاً : هل هو يريدها حقاً ؟ لماذا تراه وقف في حياته عندها دون غيرها ! بينما الرجل يكون قد تطلع اليها بارادة ان تعوضه عما فقده في الحياة ، وهو يتساءل : لماذا تراها قبلتني في حياتها ؟ هل لانني الوحيد الذي عبرت لها عن مشاعري ؟ ام لانني ذو مال ام لي بعض الذكاء ام بعض الشهرة ؟ وكل هذه الاسباب لا تطمئن الرجل الذي يريد الجواب ان يكون تبلوراً لهذه جميعها فيصير : لانها تحبني .

ولكن الفتيات في هذا المجتمع تتحرك كثرتهن في بطء وبلادة ، وقد احسسن على انفسهن وطأة ثقيلة من التقاليد والعادات يرضين بها وترهقهن محاولة انتزاعها او الثورة عليها . والمجتمع لا يكون على صورة قالب خارجي فحسب نرتديه كلما تعاملنا مع الناس ، بل هو يتغلغل الى اعماق الفرد فيمتزج بها ، لهذا فان الجرأة تبدأ من الداخل على شرط ان تنتقل اخيراً الى الخارج . ففي عالم الحلم نستطيع ان نثور على الواقع كيفما شئنا ، والشخص الايجابي هو وحده الذي يعبر من مرحلة الحلم الثوري الى مرحلة الفعل الثوري .

اننا نريد المراة التي لا تشاركنا حياتنا فحسب ، فهذا مجال ، رغم جماله ، الا انه جد اناني ، اننا نريد المراة التي تشارك في البناء الحضاري ، حيث لم تساهم في ذلك حتى الآن الا بنصيب ضئيل . ونحن لا نستطيع حقاً ان نتجاهل تلك المهمة التي قامت بها الانثى وحدها خلال التاريخ ؛ مهمة الحمل وما يستتبعه الحمل من الرضاعة تلك المهمة التي ربطتها بالطبيعة وجعلتها تعاني تجربة ما يمكن للرجل ان يحياها . لكن هذه المهمة تكاد تكون متصلة باستمرار الكيان النوعي اكثر مما هي متصلة بصميم البناء الحضاري ، لهذا وجدنا ان محاولة المرأة للمشاركة في البناء الحضاري تسير جنباً الى جنب مع محاولة التخفيف شيئاً فشيئاً من هذه المهمة التي لم تشغل الرجل يوماً ما مما اتاح له ان يتفرغ لمساهمات اكثر صلة بجوهر البناء الحضاري . وحقاً كانت الفرص -- ولا تزال رغم ما حصلن عليه — فرصاً قليلة . ومع ذلك فنحن نأمل ان نحصل على نساء يشاركننا في استيعابنا للحضارة والمساهمة في حركتها العامة . وهي تساعدنا على ذلك بما تهيئه لنا من لحظات جميلة وجو عاطفي يؤكد لنا في كل لحظة جمال الانسانية وخصوبتها ، ثم بجهدها الشخصي في مشاركتها للتراث الحضاري . فنحن هنا لا نريد الحصول على مجرد الجسد ، فهذا ما لا يحتاج الى كفاح ولا الى خطوات . وهذا قد يشبع لذة الجسد ، لكن الروح ستعود حزينة . اننا نريد هنا ان تبلغ الانانية قمتها فنحصل على الروح والجسد معاً .

والناس لا يعيشون في مستوى روحي واحد ، هناك من يعيشون في المستوى الحسي او المستوى الاجتماعي ، فلا ينظرون للاشياء والحركات والعلاقات ولا يقيّمونها الا من خلال ما تقدمه لهم من ملاذ حسية أو من تقدير اجتماعي . وهناك من يعبرون هذه المستويات لان لهم قيمهم العقلية التي يتشبثون بها . وهؤلاء يرون ان محاولتنا الحضارية اليوم هي ان يحتل الفهم العقلي اكبر مساحة ممكنة في مجال الحركة الانسانية ، وان يطارَد التشبث باللامعقول حتى أبعد الحدود . ومع ذلك فان العلاقة العقلية التي تقوم بين اثنين لا يمكن ان تهدر لهما ذلك الامتزاج المجنون الذي يربط كل منهما بالآخر حتى الموت . انهما يأملان ان يعبرا من مرحلة هذا الفهم النسبي القائم على العقل الى الحركة العاطفية القائمة على الايمان . وهكذا يتسرب اللامعقول مرة اخرى من خلال المعقول ، والمطلق من خلال النسبي . وبدلاً من ان يكون الايمان اولاً ثم التعقل يصبح التعقل اولاً ثم الايمان . وبدخول الايمان في العلاقة بين الشخصين تسقط الحركة الارادية عنهما ، وهكذا فان ما يبدو انهما فعلاه بمحض اختيارهما في اول الامر ، لا يستطيعان الخلاص منه اذا هما حاولا ذلك من جديد . وهناك اشخاص لا يقدّرون خطورة هذه اللحظة الحاسمة في تاريخهم ، والتي توضع جنباً الى جنب مع ولادة الفرد وموته ، فيقطعون في الشوط خطوات ، ثم يبدو لهم ان يتراجعوا . . . وقد تبلغ بهم المحاولة اليائسة ان يقطعوا علاقاتهم بالآخر فيبدو للعالم كله انه لم تعد ثمة صلة قائمة ، ومع ذلك فهم يدركون في قرارة نفوسهم انهم يخدعون العالم والآخر وانفسهم ، لان مصيرهم قد ارتبط به ان حباً وان كرهاً .

واذن ففي هذا الكفاح تساعدنا طبائعنا بجانب عظيم . فليس كل شيء يتم ارادياً كما نحسب في اول الامر ، بل ان اغلب ما يحدث يكاد ان يتم تلقائياً بعد الدفعة الاولى ، يعيننا على ذلك ما في نفوسنا من تهيؤ للحب ورغبة في الآخر ، ثم الرعاية الدقيقة لكل ما يحدث . فنحن نبدأ نتوهم اولاً ان الامر يجب ان يخرج من دائرة الاختيار الى دائرة الضرورة ، فلم نعد نستطيع ان نختار

هذا دون ذاك ، بل ليس امامنا الا هذا الانسان ، فقط هـذا الانسان . وبهذا نسد امامنا كل امكانية للتراجع ونفعل ما فعله طارق لجيوشه حين احرق الاسطول الذي حملهم فأصبح البحر وراءهم ، ولم يكن بد من ان يتقدموا ؛ ولو اننا لا نحب ان نشبه الحب بالغزو كما يحلو لبعض المفكرين الهمجيين .

لكن الانتقال من الاختيار الى الضرورة تستتبعه حتماً سلسلة من اللوازم . فالى جانب سقوط الحركة الارادية ؛ نجد ان الغربة بيننا وبين من نحب قد سقطت فحوينا ماضيه وحاضره ومستقبله ، بينما نحاول نحن من جانبنا ان نجعله يحوي كذلك ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا . فمن اهم « القواعد » هنا ان يسير الاثنان خطوة خطوة ، والويل لمن يسبق احدهما الآخر . فاذا حدث ان بلغ احدهما اللحظة التي فيها يتوهم ان الآخر على استعداد لان يعطيه نفسـه ، بينما يكون هذا الآخر لم يكد يبدأ اولى خطواته ، فان تصرفات الواحد لن تكون معقولة ولا مستساغة لدى الآخر مما يعجل بانفصالهما المحزن المهول .

ونحن لا نستطيع ان نتقدم الى الآخر ونقول له : ارجوك ان تحبني . فحين يخرج الصياد الماهر — على حد تشبيه د . ه . لورنس في قصته الثعلب — اصيد غزال ما ، فانه حين يراه لا يقول له : ارجوك ان تقع صريع رصاصتي . فحين يسمع الغزال هذه الكلمات يعدو بعيداً بعيداً . بل ان الصياد يختار الوقت الملائم ، ويخرج في الصباح ، في الفجر ، متسللاً في خفة وحذر ، ويجهد ، من اجل ان يحصل على الغزال اخيراً . وهذا هو مـا ندعوه باسم الكفاح من اجل الحب .

ونحن حين نكافح من اجل الحصول المتبادل ، نجد اننا نغير شيئاً فشيئاً ذلك الانسان الذي احببناه ، ونحاول اقناعه بأننا نتميز عن الآخرين كذلك . . . بل نحن نكون كذلك حقاً في اللحظة التي يكون فيها هو امامنا بل في اللحظة التي تمر بنا صورته . ويحاول كل منا ان يدرك العلاقة التي بيننا على نحو متميز مقدس رائع غريب ومفرح وحزين . وهكذا نكافح معاً من اجل ان ننسج خيوط الشبكة الحريرية حولنا ، شيئاً فشيئاً . . . حتى نجد اننا ذات يوم عريانين تماماً ، الواحد امام الآخر ، بلا خجل ولا خطيئة .

ان الصداقة ، والعلاقات العائلية ، والصلات الفكرية ، كلها تكاد تكون بمقدار ، وكلها لا تستطيع ان تزيل آخر ركن من اركان الانانية في نفوسنا . وفي كل هذه العلاقات نحس بوجودنا واضحاً ، ونحرص دائماً على ألاّ تلغى ، ونعطى بقدر ما نأخذ ، ونأخذ بقدر ما نعطي . لهذا يظل الاحساس بالتكتل واضحاً ، ولا تستطيع ان تحطمه كي تنتشر انتشاراً تاماً في هؤلاء الآخرين .

اما الحب ، فهو يثور على هذا الوعي المستمر للعلاقات التي لا تريد ان تندفع الا بمقدار . ويهتز وجودك في عنف وانت تنتشر في الآخر ، وتصبح انت فيه وهو فيك بحق ، ويحس كل واحد ان الآخر جزء منه متحرك في العالم الخارجي . وتلك هي المرة الواحدة التي فيها يشعر الانسان ان تكتله قد امتد فشمل آخر ، بحيث يبدو لهما ان العالم يواجههما معاً . فالحب هو الصورة المطلقة للصداقة ، وهو يقوم في نهايته على الايمان فما لم اومن بالانسان الآخر فأنا لم احبه بعد .

وليست العلاقة الاجتماعية هدفاً على الاطلاق ، بل هي لون من الوان العلاقة نقصد اليها يوماً كي نرفع عنها فكرة العبث من اذهان الآخرين ، ولكننا نعرف جيداً فيما بيننا ان الحب هو وحده الذي يرفع العبث عن كل عـلاقة تقوم بين الجنسين . فقد تقدم امرأة شفتيها لرجل لا تحبه ، واخرى قد تقدم جسدها لرجل تحبه ، والفرق بين المرأتين هو ان الاولى عابثة ساقطة والاخرى مخلصة جادة . وهكذا يقرر الحب اخلاقية العلاقة امام صاحبيها ، ويقرر الزواج اخلاقية العلاقة امام الآخرين .

وموقف التردد بين الزواج ، وعدم الزواج ذلك الموقف الذي عبر عنه كيركجورد وارتفع به في نطاق روحي شامل لا سيما في كتابه « اما هذا واما ذاك » هو — حتى اليوم — موقف الرجل . اما مجال التردد لدى المرأة فهو مقتصر على تفضيلها هذا الرجل عن ذاك . وهذا وضع طبعي للامور كما هي الآن . فموقف الرضا او الرفض من الزواج نفسه هو موقف الجنس الذي بيده الدور الايجابي ، اما المراة التي ليس لهـا اليوم الا النصيب السلبي ، فهي لا تفكر في التردد هنا حيث ان الزواج هو الدليل الوحيد ، امام المجتمع ، على اهليتها للحب او على اهلية انوثتها بوجه عام ، بينما هو لا يفسر على هذا النحو لدى الرجل ، ولهذا وجدنا رجالاً يترددون امام الزواج ، وآخرين يشترطون الحب لهذه العلاقة الاجتماعية ، حيث يجدون فيه المبرر لتحملهم مسؤوليات وتبعات يرون انهم يمكن ان يكونوا في غنى عنها طالما هم لم يحصلوا على مقابل عاطفي . ولئن كانت مشكلة الوحدة هي الحاجة الى الحب ، فان مشكلة الوجود مع الآخر هي ضرورة الحب ، وهكذا بين الوحدة والعلاقة بالآخـر تستحيل الحاجة الى ضرورة .

وهنا نلمح فرقاً جوهرياً في الموقف الروحي لكل من المسيحية والاسلام ، ففي المسيحية تكون الارادة اولاً والاختيار ، فاذا

خريف شاعر

☆

ايها الغابُ يا بقايا اخضرارِ
في غصونٍ تلفّعت باصفرار
يا جبيناً يموج فيه شحوبٌ
واكتئاب كومضة التذكار !
انا اهوى البكاء اهوى دموعي !
فهي لحنُ الخلود في قيثاري
انا ارتاحُ اذ ارى الشمس تهوي
في مغيبِ الفناء إثرَ افترار !
فيذوب الضياء بعد ارتجافٍ
كارتجاف الآهات في مزماري !

***

يا طيوراً شجيّة اللحن باحت
بالغريب العميق من اسراري
سوف امضي لعالم غير هذا
ابديّ الاطياب والازهار !
فاذرفي الدمع ان تلاشى ترابي
ثم ذُرّي المطموس من اخباري
وتغني بشعري العذب ينسا
بُ انسياب الانسام في الاسحار
ربّ روح تألمت مثل روحي
فهمتني فقدّست آثاري !

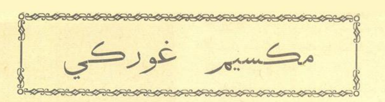
فؤاد الخشن

تم الزواج فقد انتقلنا من دائرة الارادة والاختيار الى دائرة الضرورة اذ لا مجال للانفصال ، اما في الاسلام فان ما يسبق الزواج يمكن ان يكون حركة قائمة على الضرورة واللامعقول ، فاذا تم الزواج بدأ دور الارادة والاختيار ، وهذا هو المعنى الروحي للطلاق في الاسلام ، ولوانه منحه للرجل ولم يمنحه للمرأة الا في حالات خاصة؛ فالمعرفة الحقة هنا لا تتم الا بالزواج حيث لا سبيل الى تعرف الرجل على المرأة كأنثى الا من خلال جسدها . فوجود الطلاق كامكانية في الزواج الاسلامي معناه ان استمرار الزواج في كل لحظة هنا هو استمرار متصل لحركة ارادية في الارتباط بالانسان الآخر . ومع اننا لسنا بسبيل المفاضلة بين الموقفين ، الا اننا نستطيع ان نلخص الموقفين في صورتيهما المطلقتين بقولنا انه بحصول الزواج في المسيحية يبطل دور الارادة والاختيار ، وبحصول الزواج في الاسلام يبدأ الدور الحقيقي للارادة والاختيار، وبين هذين الموقفين تقف الناس وتقف الشرائع الحديثة على ابعاد مختلفة .

ولكن الامر لا يقف عند هذا الحد ، فالحب — كالحياة — ليس هدفاً نبلغه وننتهي عنده ، كلا بل هو ممارسة مستمرة وحياة وكفاح من اجل الاحتفاظ بما حصلنا عليه من قبل ومن اجل التأدي الى ما يمكن ان نحصل عليه في المستقبل . ففي الألفة ثمت خطر مضاعف عن كل ما كان من شأنه ان يحطم كفاحنا من قبل . وما افظع هزيمة المنتصر ، ذاك الذي لا يجيد فن الاحتفاظ بعد الحصول . فاذا فتر كفاحنا الروحي في فترة ما ولسبب ما ، فاننا سنخسر كل شيء ، وتصبح محاولة التخلص من الحب ، والكفاح من اجل التخلص من الحب مهمة اشق تكاد تكون مستحيلة التحقيق . ذلك لان كفاحنا من اجل الحب مهما كان حذراً ولبقاً فانه لا يتحفظ — ولا يمكنه ان يتحفظ — ليوم فيه قد يتراجع . وبكارة العاطفة ثروة يجب ان ندرك قيمتها، والا قامرنا بها في غير وعي في تجربة واحدة قاسية مفزعة مسيطرة ، نخرج منها وقد افلسنا من الايمان والتحمس والثقة ، لكي نحيا في نوع من العربدة اليائسة المحطمة او التحرك البليد المستسلم .

ان الحب ليس هبة تهبط علينا من السماء ، بل هو جهد جميل نتطور به من اجل ان نقترب الاقتراب الذي به يصبح كل منا ضرورة للآخر ، وهو ليس علاقة مجردة ، بل هو هذه اللحظة او تلك ، بما حوته من كلمات وافعال ، بل حتى بمجرد صمتها الرائع .

القاهرة — يوسف الشاروني



مكسيم غوركي

ترجمة مصطفى القصاص

☆

لم يكد الكسيس مكسيموفتش بتشكوف* يترقى صعداً في مدارج الادب الروسي الحديث حتى هجر اسمه الاصلي ناحتاً لنفسه اسماً ادبياً مستعاراً يوقع به روائعه الادبية تمشياً مع عادة سار عليها الادباء والسياسيون منذ القدم حتى اليوم، فصار اسم مكسيم غوركي — وهو الاسم المستعار — ملء الاسماع والاذهان.

استأثر الموت بوالده ولمّا يجز الرابعة من عمره، وماتت والدته وله عشر من السنين، فذاق مرارة اليتم صغيراً، وتقلب في حرمان العاطفة طويلاً، فتفتق ذهنه صبياً ؛ ولمعت في خاطره لمعات فلسفية نلمسها واضحة جلية في مختلف كتبه ومقالاته، فقد كتب في احدى المجلات يقول :

« الحياة من حولنا تغلي وتفور، وضمائر جديدة تستيقظ، وتبعات جسام تفرض نفسها، وانسان جديد يظهر الوجود متسائلاً :

« اين العدل ؟ اين هم اصدقاؤنا، واين هم اعداؤنا ؟ . . » .

دخل اول ما دخل مدرسة ابتدائية، ولكنه . . . لم يستطع ان يتمم دراسته فيها لقلة موارده، فانصرف يثقف نفسه وينمي معارفه بقدر ما يسعفه مجاله، ويرضي به طموحه، في ظروف شاقة أليمة . . اشتغل عاملاً بسيطاً في احد محالّ الاحذية، ساعياً طوال نهاره في قضاء حاجات مستخدمه . . . واشتغل عند رسام، واشتغل عند طباخ في مركب يمخر عباب الفولغا، اشتغل حارساً ليلياً في المزارع، واشتغل في المخبز، واخيراً . . . اشتغل حمالاً يفرغ احمال القوارب والسفن . لقد تحمل مشاق الحياة مكرهاً، وصبر عليها الصبر الشديد حتى حفرت في مخيلته اخاديد لم تستطع الايام محوها، وبات يذكرها حتى النفس الاخير من انفاس حياته .

ونتساءل بعد ذلك . . . هل صدته هذه الصعاب عن مواصلة دراسته ؟ وهل استطاعت انَ تقضي على ميله الشديد للعلم؟ . . .

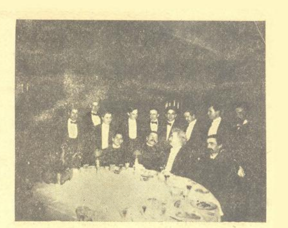
لا . . . ها هو الآن في السادسة عشرة من عمره، راحلاً الى قازان يحلم بدخول جامعتها ولكنه لم يقبل فيها بطبيعة الحال، لنقص مؤهلاته، فاشتعلت في نفسه ثورة جامحة، وهام على وجهه سائراً على قدميه في اراضي بلاده الشاسعة، فلئن فاته الاطلاع على حياة الناس في الكتب والدراسات فلن يدعها تفوته عن طريق احتكاكه بالناس عن كثب في مختلف مناطقهم والمطالعة في كتاب الحياة الواسع . فساح في الارض دارساً متفحصاً، متفهماً، بفكر الناقد الخبير، فاجتاز فيما بين السنتين ١٨٨٨ — ١٨٩٢ رقعة كبيرة من اوكرانيا، الى الدون، الى كوبان، فبسارابيا، فجورجيا، فاختلط واحتك بآلاف البشر من مختلف الجنسيات، حتى الشرقيين مما غذى مؤلفاته فيما بعد، واكسبها العديد من اللوحات التصويرية او النقدية الجليلة .

وقد اكسبته هذه الرحلات تجربة فائقة، وعلمته كيف يستعد لمهاجمة الظلم السياسي والاجتماعي اللذين كانا يسودان روسيا آنئذ .

وفي هذه الاثناء بزغ نجمه كأديب فقد اتصل في تفليس صيف سنة ١٨٩٢ بالذين تعتمل في نفوسهم الآراء الجديدة، ونشر في ايلول من تلك السنة قصته الاولى « ماكار تشودرا » في جريدة « قوقاز » كاشفاً بها عن عبقرية فذة كامنة في تلافيف دماغ هذا الناشىء الجبار .

وقد حاول ان يوضح في مؤلفاته منذ القصة الاولى فكرة لايقاظ مواطنيه من غفلتهم، منبهاً نفوسهم الى طبيعة الطبقة البرجوازية الاستقلالية، حيث يسعى البائع الشره او البرجوازي الصغير بين ايديهم سيداً عليهم، ولم ينسَ ان يصف لهم الرجل الجريء المقدام الطيب القلب الذي يومىء للناس بان تسير خلفه في

* احتفلت الاندية الادبية في الثامن والعشرين من شهر آذار الماضي، تذكاراً لمرور ثمانين عاماً على مولد الكاتب الانساني مكسيم غوركي، ويسر الاديب ان تخصص هذه الصفحات القليلة لدراسة حياته اسهاماً منها في تخليد ذكرى هذا الكاتب المعاصر الكبير .



يمثل هذا الرسم الكاتب الروسي الكبير مكسيم غوركي في نادي الكتّاب الشباب بنيويورك عام ١٩٠٦ . ويرى وهو ينظر الى الكاتب الاميركي المعروف مارك توين الجالس الى يساره

●

صراعه لنيل الحرية . ولا يزال العالم الى اليوم يذكر تلك الضجة الكبيرة التي احدثتها مؤلفاته « اغنية الباتروس » و « البرجوازيون الصغار » وقصتاه « الثلاثة » و « فوما كورداف »

ولم يكتفِ في كل مؤلفاته هذه ان يظهر جميع التبعات الجسيمة التي يتحملها البرجوازي لحفظ امكانيات الشعب الصعبة ، بل افعمها بالاحترام للعامل ، داعياً اياه الى المشاركة في بناء هذه الحياة على اسس اسلم واثبت .

واقبلت الثورة التي تنبأ بها في تآليفه مسرعة عام سنة ١٩٠٥ ، ورغماً عن انه لم يسهم فيها اسهاماً واسع المجال ، فقد اكتفى منها بناحية ايجابية ، ليكتب البيانات والرسائل ضد القيصرية ، او ليسعى لابناء موسكو او سان بطرس برغ الثائرين لتخليصهم من العقاب او السجن بما صار له من نفوذ ، الى ان وقع اخيراً هو نفسه فيما كان يحمي الناس منه ، فقد اعتقل وسجن في قلعة بطرس وبولس ، ولم يلبث ان ذاع نبأ سجنه ، فهاج الناس وماجوا ، فاضطرت السلطات للافراج عنه تحت ضغط الرأي العام في روسيا ، واوروبا ؛ وخرج من سجنه ليتمتع بحريته من جديد .

وليتخلص من مهمته التي حملها مختاراً تجاه اصدقائه الثائرين ، غادر غوركي بلاده عام ١٩٠٦ الى اوروبا ومنها الى اميركا ، وفي صيف ذلك العام كتب اروع قصصه « الأم » تلك اللوحة الوضاءة التي مرت عليها يد المعلم بابرع ريشة وازهى لون ، واصفة اجيال الثائرين المقاتلين البواسل ، في نضالهم ضد الانظمة القديمة ، وقد قرأ لينين هذا المؤلف فأعجبه ايما اعجاب ، ونعته بانه اداة نافعة لايقاظ الشعب في نضاله .

وجلجل هذا الكتاب الذي يعد اقوى صفعة سددها غوركي الى وجه القيصرية في العاصمة الاميركية ، ومنع على اثرها من العودة الى وطنه .

وهنا بدأت تظهر عليه آيات التعب والمشاق اللذين قاساهما في سنيه الاولى واخذت تغضن ذلك الجسم شيئاً فشيئاً وتفنيه ، فاضطر للالتجاء الى جزيرة كابري في ايطاليا ، حيث لبث فيها حتى عام ١٩١٣ ، مثابراً على الكتابة ، مخصصاً كل جهده في سبيل الثورة ، وكتب مؤلفين ضخمين « او كوراف المدينة الصغيرة » و « حياة ماتفاي كوجماكين » ولم يدخر غوركي وسعاً في هذين الكتابين والكتب التي تلتهما في اذكاء روح المناضلة لحياة افضل حيث تلتئم جراح الشعب ، ويستقر ، لبناء وطنه على اسس جديدة فيها الخير الكثير ، وفيها الرفاهية الكثيرة . . . وعلى ذلك استقبل نبأ اعلان الحرب سنة ١٩١٤ باحتقار وبدون مبالاة ، فناضل ضدها ما وسعه النضال .

واشتعلت نيران الثورة الروسية وانتصر رجالها في تشرين الاول ، فكرس الكاتب الكبير كل قوته لانماء ثقافة اشتراكية في وطنه ، ويعود الفضل اليه في اكثر التآليف التي كتبت خصيصاً للشعب الروسي .

●

مكسيم غوركي يودع في المحطة الكاتب الفرنسي الشهير رومان رولان وزوجه حين زيارتها لموسكو عام ١٩٣٥



وازدادت حالته الصحية سوءاً على سوء فأشفق عليه لينين وطلب اليه النزوح من روسيا طلباً للراحة والاستشفاء ، فغادرها الى ايطاليا عام ١٩٢١، ولبث فيها زمناً ثم عاد الى وطنه، وعاد الى العمل المرهق ، فسكن في موسكو ، ثم في القرم ، ونشر عدة مقطوعات وقصصاً بعد ان انهى ملحمته الكبيرة ذات الاربعة المجلدات « حياة كليم سامغين » عدا الكثير من المقالات المهمة الحاثة على بناء الحياة الروسية الجديدة .

وكانت مهمة غوركي في ذلك العهد كبيرة ، لرعايته دولة الادب في روسيا ، مؤسساً مجلات وجرائد جديدة ، وآخذاً على عاتقه مهمة اعانة نشاط الادباء الناشئين ، والمبتدئين ، ويعود اليه الفضل في تنظيم مؤتمر الكتاب في موسكو حيث اجتمع رجال الادب من جميع انحاء الاتحاد السوفياتي .

وظلت افكار غوركي العميقة المتعلقة بالعلوم والفنون تملأ كل خطبة من خطبه، وكل مقالة من مقالاته حتى اخريات حياته ، ولاتزال الى ايامنا هذه تلعب دوراً كبيراً في اغناء ثقافة بلاد السوفيات .

ان صوت غوركي لا يزال يدوي في صدورهم، داعياً اياهم الى الجد، الى الخلق والابداع، والى الاخوة بين الشعوب . انه كان يعلم علم اليقين ما سيحدثه رد الفعل العالمي باثارة حروب جديدة فيها هلاك الانسانية .

لقد كان غوركي رجلاً انسانياً ، فلم ينس في تحريره لوطنه ، الانتباه الى شعوب الشرق في حركاتهم الانطلاقية الوطنية ، فقد كتب بمنتهى الحب والعطف عن حركات الهند ، والكتل العربية والفارسية وغيرهما من الشعوب الشرقية التي ترزح تحت نير الاقطاعيين الذي لا يرحم .

ان آراء غوركي ونقده لهذه الحالات لم تفقد قيمتها بعد ، فكلما حركت الاطماع الرؤساء الى اذكاء نار الحروب كانت كلمات غوركي الى جانبهم تقض عليهم مضاجعهم وتحذرهم من عاقبة امرهم .

اثنتا عشرة سنة تقريباً مرت على موت مكسيم غوركي ولكن ذكراه ستبقى في خلد العالم اجمع . ان غوركي لا يزال معنا في افكاره يعيننا على النصر لنيل الحرية .

وقد كتب عنه صديقه نيقولا نيليشاف يقول : في تلك السنوات البعيدة المظلمة ، عندما كان الشعب الروسي يرزح تحت نير الارهاق جاءت مؤلفات غوركي في وقتها، انه في قصصه المليئة بالشجاعة والحياة يصرح في يقين لا تؤثر فيه الزعازع : « الانسان قادر على كل شيء » ان التلاميذ والعمال والكتاب والمستخدمين كلهم قادرون على رفع مستواهم . ان ظهور غوركي بين رجال



يمثل هذا الرسم التاريخي الكاتبين الروسيين الخالدين ليون تولستوي ومكسيم غوركي عام ١٩٠٠

●

الادب احدث رجة في المجتمع السوفياتي .

لقد كان رجلاً كبيراً ، هزيل الجسم محدودباً، يبرق في وجهه عينان لامعتان ، ويزينه بين آن وآخر شبح ابتسامة عذبة ترتسم على شفتيه . هذا هو غوركي .

كثيراً من الشباب كانوا يسألونني : « ما هي الاربعاء الادبية » التي لعبت عام ١٩٠٠ دوراً هاماً في الادب والحياة ، ذهبت الى اديبنا مكسيم وكلمته بشأنها ، وقلت له : انني اجمع يوم الاربعاء من كل اسبوع الكتاب الناشئين ، ليقرأوا مؤلفاتهم غير المنشورة، وينقدها لهم اصدقاؤهم ، في جو من التساهل والمرح، فأبدى غوركي اهتمامه بهذا الاجتماع وانضم الى حلقتنا فصار دأبه كلما امّ موسكو ان يزور مجتمعنا الذي كان يعلق عليه اهمية كبرى .

لقد ترك مكسيم غوركي اسمه طويلاً في مؤلفات تاريخ الادب الروسي ، فقد كان كاتباً كبيراً ، ومفكراً ثائراً ، احب الشعب وعمل له ، واحب الانسانية وعمل لها .

مترجمة عن الفرنسية — مصطفى القصاص

هؤلاء الفقراء



بقلم حسين محمد خشن

القد

كانت المعركة حامية الوطيس : فكل – من الخصمين – كان يقاتل بضراوة اللبوءة الثكلى ، والذئب الجائع الكاسر . . انه ليود ان ينشب اظافره ، او أنيابه في عنق خصمه . . وانه لينبغي عليه ان يذل هذه الصخرة الكؤود الرابضة في طريقه . .

وتجمع حول « الحمالين » نفر من المتفرجين : البعض منهم يتهانفون ضاحكين ، والبعض الآخر يصرخون مشجعين ، واندس بينهما آخرون ليضعوا للمشاجرة حداً ، ومن باب « المتجر » الكبير ارتفع صوت آمر :

— : دعوهما يتضاربان . . فلن يشتغل اي منهما في تفريغ حمولة سيارة الشحن .

وانفصل الخصمان كل الى رصيف . وجلس « عبدالله » على الرصيف يهدىء حدة نفسه ، ويجهد في رد غيظه الى قيوده واغلاله .

— : لماذا يريد ان يستأثر وصاحبيه بالعمل ؟ . ألست بقادر عليه ، ام لست بحاجة مثلهم للاجرة ؟ . .

ورمق « صاحبه » عبر الطريق : كان يحاول ان يعقد طرفي قميصه المشقوق ، وكان مقطب الجبين على حسرة ، وعيناه عارمتان بالندم ، فنهض من مكانه متثاقلاً ، وسار الى الرصيف المقابل متمهلاً ، واقترب من خصمه . واقترب ، وكادت ركبته تلتصق بكتف الجالس على ناصية الرصيف ، وامتدت يده الى جيبه . . لتخرج علبة الدخان .

— : هل لك رغبة بالتدخين ؟ . .

— : اجل . . شكراً ! .

وتصافحت نظراتهما بمحبة وتسامح .

كان عبدالله – وهو يزحف الى بيته ، يمناه تقبض بقوة على حبله ، ويسراه تروح وتجيء باسترخاء ، ونظراته تتلمس مواطىء قدميه . كأنه يسير على درب كثيرة المهالك والمزالق – يمن الفكر ، ويقلب وجوه الرأي . .

. . انه بحاجة ماسة الى شيء من المال . . قليل منه ، فتتابع حياته سيرها المعتاد :

ان امرأته ما زالت تشتد عليه بالطلب : فهي بحاجة الى ثوب جديد بعد ان بلي ثوبها وخلق حتى لتستحي ان تعوز به . . وانها البارحة ، كانت تلفع وجهها غلالة شاحبة من الحزن على حظها العاثر ، وتغلف عينيها طبقة رقيقة من الدمع . كأنما تبكي ذبول احلام الامس المشرقة .

وابنته تزداد شحوباً . . وسعالها يشتد حدة يوماً عن يوم .

وابنه ، توعده المعلم بالطرد من المدرسة الى لم يشتر الكتاب .

وبدل اجارة الغرفة -- مسكنهم -- فقد انصرم من الشهر اكثر من ثلثيه . .

ثم ان ما يجمعه ، في يومه ، من عمله الشاق يكاد لا يكفي بتطلبات بطونهم ؟ ! .

. . الا ، ان ابنته تستطيع ان تنتظر ايضاً : فيصحبها فيما بعد الى الطبيب .

وابنه ، لا ضير من طرده هذه السنة ، فان هذا اضمن لزيادة بضعة قروش على الدخل . . ولكن هذا المعلم النبيل . . انه لا يظنه منفذاً تهديده ! . .

وبدل أجارة الغرفة : فما زال الشهر عن ثلثه الاخير .

لم يبق الا امرأته ! . . ينبغي عليه ترضيها . . ثم ، هذا الجار الشاب الغني الذي يقضي طوال وقته على شرفة منزله المطلة عليهم ، يرقبهم . . يرقب امرأته ، متظاهراً بالبراءة كلما رفع نظراته المتسائلة نحوه ! .

كم يود ان يقذفه . . ولو بشتيمة ! . .

. . اجل ، قليل من المال . . قليل منه ، وتتابع حياته سيرها المعتاد .

وتابع عبدالله طريقه . . وما زالت عيناه مشدودتين الى الارض . . لكأنما يبحث عن شيء دقيق ثمين فقده الساعة .

. . وترددت في سمعه تلك « الحكايات » التي كان يسمعها في

عهد الطفولة : اناس فقراء واشقياء.. ولكنهم شرفاء وصابرون ، يعللون انفسهم بان وراء كل ضيق فرجاً .. والا ، فسيعقب، ولا شك ، هذا الجحيم الارضي ، النعيم السماوي المرتقب ! .. وبغتة، تساقط عليهم نعمة ربك ، وكأنها المطر بعد طول الاحتبـــاس ، فاذا بهم اعزاء بعد ذل ، واقوياء بعد ضعف ! .

قليل من المال . انه لن يستعين به على معصية .. امـــا من محفظة منتفخة الجوانب تراخت بهـــا يد بطرة فافلتتهـــا ، بدون عناية ، لتسقط على الارض فريسة سهلة سائغة تنتظر اول عابر محظوظ .. انه لو يعثر عليها، فسيهفو قلبه لالتقاطها قبل يده، وسوف تجس اوراقها لهفته قبل انامله . ثم يبادر الى بيته ركضاً ؛ ليملأه بهجة وحبوراً : يضم امرأته ، ويقبل ابنته، ويعابث ابنه .

آه لو يجدها ! . فهو بحاجة اليها . لا ، انه لن يستعين بهـــا على معصية .

وجدت عيناه في التحديق والبحث ، وفاضت نفسه بالامل : قليل من الجهد ، قليل من المثابرة .. ويجد ضالته ! .

و .. وسرت في جسده قشعريرة عنيفة، وامتلأ دهشاً وانفرج فمه ببلاهة ! . حقاً ان قلب الانسان دليله . والا ، فما هذا ؟ .

— ما هناك ؟ .

هي سيارة فخمة وقفت ازاء بائع الموز ، وتدلت من بابهـــا المفتوح ساق غادة رائعة الاستدارة والجمال — ساق جميله : لايوجد لها مثل الا في رؤوس عباقرة النحت — لا ! .. ليس هذا مـــا استرعى انتباهه : فهذا الجمال حرام عليه . هو « عقد اللؤلؤ » الراقد على الارض ، في محاذاة الحذاء الثمين ، بتراخ واغراء ! .

.. وتمالك نفسه ، واستجمع جأشه . وسار نحوه بتمهل ، وانحنى لالتقاطه بتكاسل . كأنما هو عمل اكره عليه ، او وجد نفسه ، بعد أن رضي بالمقاولة ، قد انقص في عوض تعبه ! .

— سيدتي .. هذا لك .

وامتدت يدها مسرعة لتختطفه من بين أنامله . كأنما خشيت ان يندم على فعلته ، ويطلق ساقيه للريح . ودسته في محفظتهـــا بعناية ، وهمت بالشكر .. ولكن الكلمات سرعان ما غارت في جوفها بعد ان طفت على طرف لسانها ، ورمقته باستخفاف ، ثم اشاحت بوجهها عنه ..

— انه حمال قذر . ليس جديراً بالشكر .

وهز عبدالله كتفيه بدون اكتراث . وسار في طريقه كأنما لم يقع له امر جدير بالأهتمام ! ..

وتابع عبدالله طريقه . وما انفكت يمناه تقبض بقوة على حبله، ويسراه تروح وتغدو باسترخاء ، ونظراته تتلمس مواطئ قدميه .

وبدا لعينيه بيته يثوي بذلة واستخذاء ، وتجثم فوقه غمامة من الحزن القاتم . وتعثرت قدمه بحجر كبير كاد يكبه على وجهه . ومرت من امـــامه شرذمة من اولاد الجيران الاثرياء يتراكضون فرحين . وشعر بدمـــائه تحتشد بوجهه ، وبحنق شديد النكير ، يلهب حواسه بوخزه انه كعود الثقاب المحكوك . يكاد ينفجر غيظاً! .

.. الا ، لو كان هذا الجار اللعين بشرفته لشتمه ، هكذا . ولتحداه بأن ينزل اليه فيهشم رأسه ، ولن يستطيع احد ان يردعه عن اهانته حتى وان تجمع كل سكان الحي رجالاً ونساء واطفالاً ! .

ثم ، انه لن يسمح لامرأته ان تستقبله بكآبتها الكسيرة ، وتنهض لقضاء شؤونه بطاعة خرساء عمياء . بل سيضطرهـــا ان ترضى .. ان تضحك .

ودلف الى بيته لائذاً من تعب النهار ، وهواجس الطريق .
ووصل الى سمعه نشيج فتاته ممزوجاً بسعالها ؟ ! .

— ما هذا ؟ ؟ . ما حدث ؟ .

« لقد فرت الام مع الجار الشاب الغني .. علها تعوض ، ولو لزمن محدود ، ما فاتها من النعيم المنشود » ! .

وشعر عبدالله بشيطان مريد يثب فوق ظهره ، فينوء بثقله ، ويتداعى تحته ، وتمتد يده الى قلبه لتعتصره وتستنفد دماءه ! .

وتجمع على نفسه في الزاوية . واطلق لدموعه امرها : تسيل كيف شاءت ، وتنهمر ما ارادت ! .

وفتح الباب بسرعة ، ونفذ منه كالسهم ولده فرحاً صائحاً .
— هذا هو الكتاب . لقد اشتراه لي المعلم ! ..

ووقعت عيناه على ابيه : فانبترت قهقهـــاته ، وتراخت يده الى جانبه ، وافلتت الكتاب .

وقام الاب يمسح دمعة ، ثم يتناول الكتـــاب عن الارض بعناية .. كأنه « كتاب الله » تعرض ، في نظر المؤمن ، الى ما يضير قدسيته ! .

— الا ، حقاً .. ان الدنيا ليست قاتمة الى هذا الحد . انها لم تخل تماماً ، من الناس الطيبين ..

ظفار ـــ السفال   حسين محمد فشن



حفنة ريح

للاستاذ سعيد تقي الدين – ٢٨٠ صفحة – دار العلم للملايين – بيروت

ليس كالنقد في الادب مهنة عاقة ، وليس كالناقد في الادباء من يواجه الصعوبات ويتعرض للهفوات والاغلاط . وهذا ما يجعلني اعتقد ان انتقاد نتاج ادبي اشق وأعسر من خلق مثل هذا النتاج، فليس الابداع بأعسر من الانتقاد، بخلاف ما يذهب اليه الكثيرون. ذلك ان الاديب يكتب – حين يكتب – غير مقيد بقاعدة ، او مسير بقانون ، اذ هو يصدر عن الهام عفوي ، وذوق متحرر ؛ فهو بذلك يستجيب لنفسه اكثر مما يستجيب للقارىء، بينا يتحتم على الناقد ان يراعي الذوق العام ، وان يستجمع لنقده من الاسباب الدقيقة والقواعد الجمة ما هو جدير بان يزهده بالنقد ، لعسر مطلبه وصعوبة مسلكه، فيصرفه عنه، اذا لم يكن مؤمناً حقاً برسالة النقد واهميتها .

واشهد اني ما عكفت على قراءة كتاب ، ابتغاء نقده ، الا داخلتني خشية وتهيب بل خوف من ان اظلم المؤلف بشدة تجريح ، او أسرف على الحق بمزيد مديح ، فكنت احسب اني اتفادى الامرين كليهما بالتروئة في دراسة المؤلف والتمعن في قراءته ، والحرص على ان لا افوّت منه كلمة او صفحة ، مهما اورثت الصفحات الاولى منه في نفسي من اعجاب او ضيق، وفرح او خيبة .

وقد حاولت ان ادفع هذا الشعور عني ، حين اقبلت على كتاب « حفنة ريح » لسعيد تقي الدين ، باعادة تلاوته مرة ثانية وثالثة . وقد حرصت على هذه الاعادة لسبب آخر ، هو ان ثمة صعوبة في فهم هذا الاديب من القراءة الاولى ، فان عبارته اضيق من فكرته او صورته او احساسه . وانت تكتشف عنده لدى كل قراءة جديدة مكنونات خفيت عليك في القراءة السابقة . ومع هذا كله ، اعترف انه لم يكن في وسعي ان اوفر لنفسي جميع الاسباب التي ينبغي ان تتوفر للناقد بصورة عامة، وللناقد المسرحيات بصورة خاصة . فانّ عليّ مثلاً ان أطلع على كثير من المسرحيات العربية لأتمكن من ان احكم على الموضع الذي يجب ان تحتله مسرحية « حفنة ريح » ، ثم كان ينبغي لي ان اكون مطلعاً على عدد جم من المسرحيات الغربية ، ليكون الحكم على هذه المسرحية ادنى الى الحقيقة في معرض النقد الادبي .

وليس هذا هو النقص الوحيد الذي أشعر به في هذا المضمار ، ولكنه لا يحول – على ما اظن – دون ان اتناول الكتاب بالنقد والتعليق ، في حدود ما اكتسبته من مطالعة المسرحيات، لا من دراسة اصولها، ثم اتحول الى الحديث عن المؤلف كقصاص في مجموعته « موجة نار » .

***

« حفنة ريح » رواية في فصل واحد ، وصفها المؤلف بأنها مهزلة ، وهي في الواقع رواية خفيفة طلية رائعة النكتة ، يثير هزلها الضحك باقوى صوره ، ولكن فيها مع ذلك نزعة جلية الى المأساة ، وهذا ما يزيد في قيمتها على ما اعتقد ، لانها لا تقتصر على الاضحاك ، بل تترك في النفس اثراً من عمقها . . ونزعة المأساة فيها تتضح في هذه الفلسفة الواعية التي تنبض بها روح بطلها « وجيه » الذي ظلمه القدر ، فواجه الدنيا بابتسامة ساخرة فيها دموع . . والقارىء او المشاهد يشعر بان في صدر وجيه ألماً على الرغم من انه يهزل ويلقي بالفكاهات : انه يحس ذلك حين يستمع الى البطل يقول : « لا اقدر ان انظم شيئاً من القلب ، لانه ليس لي قلب » او حين تطالبه ام ظريف باجرة البيت قائلة : « آخر الشهر تقول لي : ادفع في اول الشهر ، واول الشهر تقول لي ادفع في آخر الشهر ! » فيكون جواب وجيه الساخر : « يا ام ظريف ، هذا زمن لا يعرف اوله من آخره ! » او حين ينشد شعراً – على ما فيه من سقم – :

عاش تمنا من شكا آلامه ... وتناسى امد العيش القصير
صهر اللذة من أوجاعه ... كل من يضحك منها ويسير !

او حين يقول : « كلما حاولت « دوزنة » عودي وجدته مقطع الاوتار » .

وفكاهة سعيد تقي الدين من تلك الفكاهات التي تطلق النفس من عقال الرصانة فاذا هو ضحك شديد بل قهقهة يكاد المرء ينقلب منها على قفاه ، والمؤلف يعتمد في فكاهته على الروح والتعبير معاً ، وشخصية الطهنشاوي ، الاديب المتحذلق ، لا

تضحك بروح الفكاهة بقدر مـا تضحك بالتعبير الغريب الذي تستعمله . وعلى الرغم من ان معظم النكات في حفنة ريح تستند الى الفكرة ، فهناك مواقف فكاهية كثيرة تهبط الى الاعتماد على الحركة التي تتبذل احياناً ، كموقف ام زعرور واللحام حين يقومان بالحركات الرياضية . ولا شك في ان مثل هذا الموقف يظهر شديد التبذل على المسرح ، ويؤخذ على المؤلف في ذلك ميل الى انتزاع ضحكة الجمهور بالاعتماد على الحركة ، فضلاً عن ان هذا الموقف بالذات يخرج عن حدود المعقول بالمبالغـات التي لابسته ، وهذه ملاحظة اوافق عليها الكاتب المصري انور المعداوي . اما ابرع الفكاهات والمواقف الفكاهية ، فمقاطع الصفقة التجـارية ، وحديث الشيخ نسيب ووجيه ، وفكـاهة فلقتني وفجحتني ، وموقف اللحام في حالة غضبه تجـاه وجيه الخ . . وقد لاحظ بعضهم ان قول وجيه لام ظريف : انت اشهر رجل في بيروت ، ان هو الا فكاهة مبتذلة . وانا اعتقد انهـا فكاهة رائعة في الموضع الذي اتت فيه ، كما ان عدم اعجاب رشيد شقير بفكاهة « ان عايدة والحمد لله بالفـوستماية واربعين خير » كان في غير محله .

على ان المسرحية احتملت بعض فكاهات ينحدر فيها المؤلف الى الذوق العامي كمثل فكاهة « موتور دماغي لا يشتغل بدون قهوة » وجواب وجيه عن الصابونة بقوله : « اي صابونة كانت : حمراء او بيضاء ، طويلة او قصيرة ، شيوعية او ديموقراطية » الخ .

اما اشخاص المسرحية ، فانهم يشعرونك حين تتابعهم ، بان موهبة المؤلف فذة في الباسهم اللبوس الملائم الحاذق ، والزامهم ميزاتهم الدقيقة . وانت تشعر من قراءة اية نبذة عن اي بطل ان امامك شخصية متميزة Typique لها خصائصها ، فضلاً عن انها انموذج بشري حي . على ان البراعة هنا هي ان ينجح المؤلف في متابعة ميزات ابطاله حتى النهاية ، فلا يطـالعك بموقف يخون فيه البطل نفسه ، او يفقد انسجامه ، فوجيه هو هو الفتى الساخر الفيلسوف التائه منذ البدء حتى النهاية ، والعواد هو الشاب الهرم الذي يردد دائماً : « صار لي ساعة انتظر » ونايف حيمور هو المهاجر العائد صاحب عبارة : سي سنيور » . . ولكن قوة سعيد تقي الدين ككاتب مسرحي تتجلى اكثر ما تتجلى في حواره ، واحسب انه يبز في ذلك توفيق الحكيم بفضل التسلسل الدقيق المختصر اليسير الذي يقوده والايجاز في سبك العبارة ، حتى انها تكاد لا تحتمل زيادة او نقصاً في الكلام . ومن اسرار نجاح المؤلف في هذا الصدد انه حريص

على ان لا يطيل المشهد الواحد او الصورة التي يعالجها ، ولهذا تشعر بغنى المسرحية بما احتوته من صور او معان او فكاهات . وقد وفر هذا الفنى عنصر التشويق ، كما انه كان زاخراً بالمفاجآت ، على الرغم من انها مهزلة في فصل واحد .

واما الرواية كحادثة او كقصـة فنوع جديد في الادب المسرحي العربي ، وتحضرني في هذه المناسبة رواية « رصاصة في القلب » لتوفيق الحكيم ، وهي دون ريب لا ترتفع الى مستوى حفنة ريح ، لتبذل موضوعها وتواتره فيما يكتبه الكتاب . ولكني اعتقد ان مسرحية تقي الدين لم تنجُ من تأثير الروايات الاميركية السينمائية الخفيفة . فقد شاهدنا على الشاشة البيضاء افلاماً اميركية هازلة تنزع « حفنة ريح » منزعها في الحوادث ، واذا كان لاحد ان يشك في صحة ذلك ، فليس له ان يشك في ان خـاتمة هذه المسرحية تشبه شبهاً لا ريب فيه خواتيم كثير من الافلام الاميركية الخفيفة التي تنتهي بزواج الابطال جميعهم او جلهم . وانا اوافق بعض النقاد على ما اخذوه على المسرحية من ان خاتمتهـا تحملت تصنعاً وتكلفاً بيناً قلما تطيقه الحياة الواقعية ، وازيد ان حوادث العقدة تتابعت بسرعة غريبة ، فانتهت المسرحية بحشد من الوقائع البعيدة عن الحياة .

واذا كان من طبيعة امثال هذه المسرحية ان تنتهي بخـاتمة مفرحة ، كمـا تتطلب ذلك « الفودفيل » ، فقد كان بوسع سعيد تقي الدين ، وهو المبتكر الفنان ، ان يتلمس لروايته غـير هذه الخاتمة ، لينجو من التقليد الذي يكرهه كرهاً شديداً على مـا يفهم من كتابه .

ولا بد لي في معرض الكلام عن هيكل المسرحية من ان اذكر انها لم ترتكز على صراع فكري ، بخلاف ما ذهب اليه انور المعداوي . وليس بوسعنا ان نعتبر الخلاف القائم بين وجيه البطل وبين والدة خطيبته بشأن المهر والصيغة صراعـاً فكرياً له قيمته ، لانه حادث عارض لا تقوم عليه فكرة المسرحية . غير انهـا اذا خلت من مثل هذا الصراع – الذي لا يطلب حتما في الفودفيل – فهي لم تخل من الاعماق الفكرية والشعورية كمـا ذكرت ، ولم تخل ايضاً من تصوير دقيق لتقاليد اجتماعية وعادات قائمة في لبنان ، فهي – من هذه الناحية – متصلة بالحياة اتصالاً مباشراً .

بقيت لنا بضع ملاحظات وانتقادات على مواقف غير مقبولة

في سياق المسرحية . اولها ان ام ظريف تعلن في اول حديثها انها تجهل القراءة والكتابة ، وتحمد الله على ذلك . وقد كان صدق التعبير عن هذا الواقع يقتضي المؤلف ان يجري على لسان ام ظريف لغة عامية صرفاً من دون سائر الابطال المتعلمين، كما اقتضاه صدق التعبير عن واقع الطهنشاري ان يجري على لسانه لغة نحوية متحذلقة . ولكن المؤلف اهمل هذه الناحية ، وجعل ام ظريف تتحدث احياناً الحديث الفصيح فتقول مثلاً مخاطبة الفقر : « ما آلم انيابك اذ تعض وامضها اذ تلسع .. مرض لا يقتل ولا يشفي . » وهذه عبارة لن تجري على لسان لا يفقه القراءة . وهناك غلطة اخرى وقع فيها المؤلف في هذا الموضع نفسه ، فهو يذكر (ص ٤٤) ان ام ظريف تلتقط ذات حين القصيدة وتحاول قراءتها وغناءها : عاش تيساً من جفا امه .. » فكيف نراها تقرأ هنا ؟ . والامعن من ذلك في هذه الغلطة ان ام ظريف تعود بعد اسطر (ص ٤٥) فتردد ثانية انها لا تعرف القراءة والكتابة !.. ان هذا — على ما يرى القارىء — خطأ واضح في نهج التأليف .

وانتقاد آخر على استحالة موقف يذكره المؤلف ، هو هذا الموقف الذي يصور نايف حيمور يمنح البطل وجيه مجوهرات مزيفة ، فيقدمها هذا لام خطيبته التي تجن بها سروراً ، وان هي الا لحظات حتى يخرج وجيه ، وتمضي بضع دقائق فاذا نايف حيمور يعود الى غرفة وجيه لامر ما ، فتعرض ام زعرور (والدة الخطيبة) المجوهرات عليه ليفحصها ، فاذا هو يعجب بها ويدفع ثمنها ١٥ الف ليرة .. فكيف يمكن ان يصح هذا ؟ ان المؤلف يقصد طبعاً ان يظهر الجمهور على ان نايف حيمور قد خدع هو الآخر بجوهراته المزيفة ، فحسبها اصيلة .. ولكن هذا غير معقول مطلقاً لسببين : اولهما ان ام زعرور ابلغت نايف ان وجيه هو الذي قدم لابنتها هذا المصاغ ، ولا يدخل في عقل ان يعود نايف الى شراء هذه المجوهرات المزيفة التي منحها لوجيه منذ لحظات ، لا سيا وانه قضى ٣٢ عاماً وهو يمتهن بيع المجوهرات ، والثاني ان الصفقة الثانية (بين نايف وام زعرور) تمت في الغرفة نفسها التي تمت فيها الصفقة الاولى ، ولن يبلغ السخف بانسان ان تنطلي عليه مثل هذه الخدعة في مثل هذا الوقت القصير والمكان عينه ! ولهذا اعتقد ان هذا موقف اخفق فيه المؤلف اخفاقاً كبيراً من حيث التأليف المسرحي .

واما الملاحظة الاخيرة فتتناول العجائب السبع في نهاية المهزلة . فلا شك ان المؤلف قصد بخلق هذه العجائب الى السخرية والهزؤ والتعبير عن المفارقة . على انه — في اعتقادي — لم يوفق الى هذه الغاية في العجائب كلها ، فاذا كان من روح المفارقة الساخرة ان يرفض شاب وظيفة حكومية ، وان تزوج ام ابنتها بدون مصاغ ، وان يظهر في لبنان رجل يلبس اسمه عارياً ، وان يقبض البوليس على القاتل والقتيل فار من وجه العدالة (هذه فكاهات وعجائب موفقة دون ريب) فمن العجائب السخيفة التي لا تحتمل الهزؤ والمفارقة ان يستعيد لحام شبابه ، وان يظهر مؤلف ادبي له نفع ، وان يسامح ملاك مستأجراً بالاجور ..

وبعد ، فليس لنا ان نتحدث عن اداة التعبير في المسرحية ، فهي اداة انشئت ليفهمها الجمهور لا ليتذوقها الادباء ، ولهذا قربت العبارة من العامية ، وان كانت قد حافظت — بقدر — على سلامة الفصحى ، فاذا كان من همنا ان نتعرف الى مقدرة المؤلف او ضعفه في الاسلوب واللغة ، فينبغي ان نلتمس ذلك في مقالته او في قصته الفنية .

وجملة القول ان مسرحية «حفنة ريح» مهزلة تبلغ ذروة النجاح الفني في جمال حادثتها وبراعة نكتتها وقوة حوارها . وهي اذا كانت لا تعبر عن قيمتها الكاملة الا اذا ظهرت على المسرح ، فان هذا لا يعني ان القارىء عاجز عن ان يتذوق ما فيها من جمال وقوة وابداع ، ويحق لنا — لذلك — ان نعتبرها قطعة بارعة تحتل مكاناً مرموقاً في الآثار الادبية الفنية .

***

ولننتقل الآن الى الحديث عن سعيد تقي الدين كقصاص . وقد يكون من الخطأ ان نفاضل بين قصصه وكتابته المسرحية ، لانه في الميدانين جميعاً ينعم بمزايا مشتركة وخصائص واحدة ، وليس في ذلك مثار عجب ، فان القصة والمسرحية اختان ، تكاد عناصر تكوينهما تكون واحدة . وبوسع القارىء ان يلمس في قصص تقي الدين جمال الحادثة وبراعة النكتة وقوة الحوار جميعها التي لمسها في مسرحيته . بيد ان الخصيصة التي تهز بها قصص «موجة نار» هي تلك الحرارة الحية التي ينبض بها كل سطر من القصة : حرارة التصوير والتعبير معاً .. حرارة المعنى والفكرة والشعور والعبارة .. انها نفحة من الحياة يخرجها الك المؤلف من صدره بصدق واخلاص يجعلانك تتذوقها انت نفسك ، وتتحسسها في صدرك ، فلا تكاد تقرأ بضعة اسطر حتى تعيش في جوها وتتابعها باهتمام ، كأنك بطل من ابطال القصة ، ولكنك بطل متفرج

معنيّ بكل حركة وخلجة وفكرة .

ويقيني ان معظم قصص « موجة نار » قطع صادقة من حياة المؤلف ، وسعيد تقي الدين انسان يبلغ الاحساس عنده ذروة لا يبلغها احساس كثيرين ، وهو حين يقدم لك القصة، يقدمها قطعة من شعور قبل ان تكون سرداً لحادث ، وهو ، لانطوائه على نفسه ودرسه لاحساسه ، استطاع ان يبلغ السر في تصوير النفسية الانسانية عامة ، ولهذا قربت قصته قرباً شديداً من تخوم القصة العالمية . . .

هذه احكام اوحتها قصص « موجة نار » و« آلام الذكرى » و« الدواة » . ولكن خيرها لا ريب هي قصة « موجة نار » . وانا احسب ان المؤلف استكمل لهذه القصة جميع عناصر النجاح لسبب يسير جداً : هو انه نسي ان قصاص حين جلس لكتابتها . لقد كتبها في ساعة من ساعات اللاوعي .. تلك التي يستسلم فيها الانسان لهواجسه ، فيستمع اليها ويناقشها ، ويحدث نفسه وتحدثه حديثاً لم يعتد ان يطلع عليه الناس . . ويوم كتب المؤلف هذه القصة حدث نفسه بصوت مرتفع ، فجرى قلمه بهذا الحديث دون وعي !

ان جميل السغبيني ليس في الحقيقة الا سعيد تقي الدين نفسه ، وتلك الخوالج التي مرت في هاجسه قبل ان يقدم على توقيع « الشاك » حياها سعيد تقي الدين ذاته ، فعذبته وآذته وانتهت به الى تلك العقدة الضرورية في القصة ، وكانت اروع ما تكون عقدة : لقد شلت يده وتقلصت اصابعه جبناً من توقيع الشاك تبرعاً للمعهد العربي الاميركي في نيويورك .

ان قصة « موجة نار » هي دون ريب ابرع واجمل واقوى ما كتب سعيد تقي الدين ، واحسب انها ستخلد في القصص العربي ، لانها قطعة من الحياة التي يمر بها كل انسان . واروع ما فيها المقارنة بين حياة جميل السغبيني فقيراً وحياته غنياً ، فهي انموذج رائع للتحليل النفسي الغالي وتعبير صادق للهواجس التي تراود الانسان حين يغنى فيبخل . اقرأ هذه العبارة القوية بشعورها وحرارتها وصدقها : « اتذكر يا بجار يوم جاءتني من لبنان علبة الزيتون ، وجئت انت ونسيب ويوسف وسليم معي الى البيت ، وفي طريقنا اشترينا بستين سنتيما خبزاً، و٤٠ سنتيا خياراً، واكلنا واكلنا واكلنا، وضحكنا وضحكنا وضحكنا . . اما اليوم، فان وجوه المدينة يأتون الى العشاء في بيتي ، فلا نتبادل الا المداجاة، واني اعد عليهم حبوب العنب اذ يأكلون — كيلو العنب ثمنه ثلاثة دولارات يا بجار . » وتذوق هذه الالتماعة النفسية النفيسة : « ان زوجتي ستشفى ، فلو انها في طريقها الى الموت ، لكان ارتعب قلبي ، وقلبي ساكن غير خائف ! » وانظر قوة التعبير والتصوير في قوله « ان نفسي جفت وتصلبت، وانطوت على نفسها مثل هذه الاصابع الميتة » وليست العبارة التالية دونها في القوة والبروز « زجاجة سكبت منها كأساً لها طعم دم الابالسة ، ولون الزنا ، ورائحة الانتخابات النيابية في لبنان ! » .

واما قصة « آلام الذكرى » فجوها في حرارته وصدقه ونفوذه الى القلب لا يقل عن جو « موجة نار » ولكن المفاجأة الاخيرة في القصة ، اي الخاتمة نفسها ، لم تكن منسجمة مع ذلك الجو اللائع الحزين ، وهي لذلك تفسد على القارىء اللذة الهادئة التي تبتعثها في نفسه تلك الذكريات الاليمة . وقد يكون المؤلف يقصد قصداً الى هذه النهاية الهازلة ليمزج الدراما بالمهزلة — كما هي الحياة حقاً — ولكني احسب انه لم يوفق بهذا المزج في هذا الموضع نفسه ، لان القارىء يفرغ من نهاية القصة حائراً ، وكدت اقول خائباً لان نفسه لا تحتمل المزاح في سياق ذلك الجو العذب من الذكريات الأسية .

و« الدواة » قصة جميلة بارعة في روايتها عن الحياة ، واكبر خطأ يرتكبه الناقد هو في تلخيص قصة جميلة ، لا سيما اذا كانت عناصر نجاحها لا ترتكز على الحادثة نفسها او على المفاجآت والعقد، وانما على الجو النفسي الذي لا سبيل الى التعبير عنه . ولكن لنا ملاحظتين على هذه القصة : اولاهما ان المؤلف اضعف هذه القصة بادخال قصة ثانية فيها، هي تلخيص رواية « عنترة والنفط »، فهذه بالاضافة الى استحالتها وغرابتها وحادثتها الشاذة التي لا جمال فيها ، اخرجت القارىء من جو الحياة الصادق الى الخيال الممعن . وقد كان بوسع المؤلف ان يحذف هذه الرواية دون ان تتأثر القصة اي تأثر . والملاحظة الثانية هي غموض خاتمة القصة غموضاً يقف عنده القارىء متسائلاً عن قصد المؤلف . ومنشأ هذا الغموض ان احدنا يذهب به الظن الى ان المؤلف يتحدث عن هذه الزجاجة التي يلمسها بطل القصة في صدر بطلتها كشيء رمزي فحسب ، ويعزز ظنه هذا قول البطلة « ما هي بزجاجة تلك ، وما سائلها بسم ، بل هي الدواة التي بحبرها كتبت رائعتك . » . والواقع اني اضطررت الى سؤال المؤلف نفسه ايضاح هذه الخاتمة ، فافهمني انه يقصد ان البطلة ابتاعت زجاجة من السم جعلت تترشف منها كلما ارادت ان تثير زوجها (بطل القصة) بمرضها وضعفها حتى تدفعه الى الكتابة .

وهذه فكرة – على ما فيها من شذوذ – رائعة بعيدة الغور تجعل من « الدواة » قصة ممتازة تكاد تداني «موجة نار». ولكني اؤكد واكرر ان الخاتمة – التي وردت في الكتاب – لا تُفهم قصد المؤلف الذي اوضحه لي ...

واما قصة « لعنة كتاب » فنبيلة الفكرة ، واضحة المغزى : انسان يذهب ضحية طمعه وتجارته غير المشروعة .. كان يؤمن بكتاب « مجاني الادب » فكان قنوعاً مخلصاً راضياً سعيداً بعيشه، ويوم كفر به اصبح مضارباً طامعاً فاسد الاخلاق شقياً . وقد مات برداً في دير حرمه هو – بمضاربته – وسائل التدفئة والتمويض . على ان حوادث هذه القصة مضطربة اضطراباً شديداً ، ومفاجآتها وتلفيقاتها لا تبعث على الرضا ولا تغري بالمتابعة ؛ ولعلها القصة الوحيدة التي تمل القارىء باستطراداتها وحوادثها المصطنعة واغرابها في الواقع، مما يُشعره بان المؤلف يفقد نفسه القصصي البارع ويقطع صلته بالفن والحياة ، فضلاً عن انه يبعد عن جوه الصميم الممتع .

بقيت قصتا « البرهان القاطع » و« الخطاب المبتور » وهما من القصص الخفيفة الطريفة التي تسلي بالحادثة ،ولكنها لا تهز الاعماق النفسية والفكرية . ولا شك في ان المؤلف ابرع واقدر على كتابة القصة الرصينة الدراماتيكية منه على كتابة القصة الهازلة فالقارىء يخرج من قصة خفيفة لسعيد تقي الدين وعلى شفتيه بسمة ما تلبث طويلاً حتى تمحي ، بينا لا يستطيع ان ينسى اثر القصة التي تعتمد على العقد والمفاجآت النفسية التي تنزع الى المأساة . ودليل ذلك يقوم بالمقارنة بين الاثرين اللذين تتركهما تلاوة « موجة نار » و« البرهان القاطع » .

هذا عرض عاجل المجموعة القصصية في هذا الكتاب. واود هنا ان اعيد الملاحظة التي ذكرتها في نقدي لكتاب سعيد تقي الدين الاول : « نخب العدو » ، وهي ان فكرة « الهجرة» لا تزال تطغى على قصصه ، وهي تقترن في هذا الكتاب الجديد بفكرة « التجارة » و« الحرب »، فجو القصص جلها جو حرب تجارية او تجارة حربية في مانيلا ، وهذا واقع المؤلف نفسه ، ولكن ذلك لا يحول دون ان نتهمه بانه يعيش في افق ضيق ، وانه بحاجة الى ان يتحرر من اجواء التجارة والهجرة والحرب ليخوض في الميادين الاخرى التي ينبغي ان يخوضها القصاص العالمي . ان للاديب الحق كله في ان يعرض صوراً من حياته . ولكن ينبغي له كذلك ان يخرج الى دنيا الناس ليعرض صوراً من حيواتهم . أليس من العجيب المستغرب ان لا يكون في هذه المجموعة قصة غرامية واحدة ، ودنيا الناس لا تموج باكثر من حوادث العشق والغرام ، وصدورهم لا تضطرب باقوى من مشاعر الحب والعاطفة ؟. وليست دنيا الحب هي وحدها التي هجرها المؤلف في كتابه ، فهناك دنى كثيرة كالوطنية والجرائم وسواها كثير ، فليخرج المؤلف اليها ، ولينقل لنا منها قطعاً حية « كموجة نار » ! .

اما اسلوب المؤلف ، فليست له ميزة خاصة تجعل منه شخصية قائمة بذاتها ، لانه متفاوت بالقوة ، وغير ذي نهج واحد . فبينا تلمحه في « موجة نار » سلساً عذباً غنياً بالالفاظ ، وافر التشابيه والاستعارات ، الى قوة في النسج وجزالة ، تقرأه في «لعنة كتاب» و«الخطاب المبتور» و« البرهان القاطع » سرداً يسيراً لا صناعة فيه ولا تذوق ، بل هو اقرب هنا الى الاسلوب الصحفي السريع الذي لا يأبه الا الى تقديم الفكرة ولو كانت الاداة ضعيفة لا تثير السحر ولا تفتن . وقد استطيع ان اطمئن الى ان اداة التعبير عند تقي الدين متصلة اتصالاً وثيقاً بجوه النفسي . فاذا كان هذا الجو حياً حاراً نابضاً بالخلجات ، كما هو الشأن في « موجة نار » و« الدواة » كان الاسلوب متيناً جزلاً واللغة غنية حلوة الجرس، بخلاف القصص الثلاث التي ذكرت . على ان النقيصة الكبرى في هذا الاسلوب – على كل حال – هي استهتار المؤلف اللغوي ، فهو لا يكاد يقيم اي وزن لفصاحة الكلمة او لعروبتها : ففي كتابه كثير من المفردات والكلمات الاجنبية من مثل سعدان، تلغرافات، كميونات، نمرو الخ .. مع ان لجميع هذه المفردات والكلمات تعابير فصحى اجمل منها واروع . ولو ان المؤلف سلم من هذا الاستهتار، واحتفى بتجميل اسلوبه واعتنى بتحسين لغته ، لماشت اداة التعبير عنده اداة التفكير والابتكار جودة وروعة .

بقي ان اشير الى ان المؤلف ينعم بحس انتقادي رفيع . بيد ان له انتكاسات واضحة ، منشأها انه يرتكز على التذوق اكثر مما يرتكز على المنطق والقاعدة الفكرية ، ومصداق ذلك يلمس في نقد المؤلف لكتابي « اشواق » وهو قسم المراسلات في « حفنة ريح » ، ولعلني افرد لذلك فصلاً آخر لا يتسع له المجال الآن .

***

وبعد . فان كتاب « حفنة ريح » مظهر رائع لغنىً فكري وشعوري وفني يتمتع به الاستاذ سعيد تقي الدين ، يجعل منه اديباً فناناً في طليعة الادباء اللبنانيين المجددين .

سهيل ادريس



٢٤ نيسان – عقد في عمان اجتماع عسكري هام، ضم سمو عبد الاله ورياض الصلح والقواد العسكريين بحضور الملك عبدالله .

– وافق مجلس الامن على تأليف لجنة من قناصل اميركا وفرنسا والبلجيك في القدس لاعلان الهدنة في المدينة .

٢٦ – توجهت الجيوش العربية نحو الحدود الفلسطينية وتمركزت في المواقع الاستراتيجية .

– لا تزال المعارك تدور في يافا وعكا .

٢٧ – وافقت الهيئة العربية العليا والوكالة اليهودية على اقتراح فرنسا بتشكيل قوة بوليسية دولية لحماية القدس .

٢٨ – اعلن المستر بيفن انه لم يعد بالامكان وقف جلاء الجيوش البريطانية عن فلسطين .

– وافق البرلمان الفنلندي باكثرية ١٥٧ صوتاً على الحلف العسكري بين فلندا وروسيا .

٢٩ – استردت قوات الانقاذ العربية ما احتلته قوات الهاغاناه في يافا وردتهم على اعقابهم بعد ان قصفت تل ابيب بالمدافع الثقيلة .

٣٠ – عقد في لندن موتمر عسكري اشترك فيه وزراء دفاع الدول الغربية الخمس .

– ارسلت لجنة المهادنة الدولية برقية الى الملك عبدالله تحذره بالاقلاع عن فكرة احتلال فلسطين وقد اجاب الملك عليها بان اليهود هم الذين بدأوا بالعدوان وقتلوا الابرياء فوجب عليه حماية ارواح اخوانه العرب .

١ نوار – ندد الماجور اتلي في خطابه الذي القاه بعيد العمال بالشيوعية واتهمها باخضاع الشعوب الضعيفة لحكمها .

٢ – استقدمت الحكومة الفلسطينية نجدات بريطانية الى فلسطين .

– انتهت موتمرات عمان العسكرية .

٣ – اكدت الدول العربية لاميركا وبريطانيا بانها لن تحتل فلسطين قبل انتهاء الموعد المعين لانتهاء الانتداب البريطاني .

– رفضت لندن وواشنطن وباريس مطالب يوغوسلافيا من النمسا، وعاضدتها روسيا .

٤ – اعترفت الولايات المتحدة باخفاقها في مشروع الوصاية الذي اقترحته على مدينة القدس، وطلبت الى مجلس الوصاية اتخاذ جميع الاجراءات لحماية المدينة المقدسة .

– استقالت الوزارة الايطالية واطلقت الحرية التامة للسنيور ديغاسبيري لتشكيل الوزارة الجديدة .

– قطعت كولومبيا علاقاتها الدبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي .

٥ – قدمت الوزارة البلجيكية استقالتها .

– اذاع الرفيق غروميكو في اميركا منشوراً نفي فيه نبأ ارسال قوات روسية الى فلسطين اثر انتهاء الانتداب البريطاني عليها .

٦ – عقد البرلمان الاردني جلسة سرية مؤيداً مليكه في سبيل تحرير فلسطين .

– وجهت لندن الدعوة الى الاتحاد السوفياتي والدول الاوروبية الشرقية للانضمام الى مشروع مارشال .

٧ – وافق العرب واليهود على الكف عن القتال في القدس .

– رفض مجلس الامن قبول مزاعم اليهود عن هجوم الجيوش العربية على فلسطين .

– افتتح المستر تشرشل موتمر الاتحاد الاوروبي في لاهاي ودعا الى تأليف برلمان اوروبي تدفن الضغائن فيه ليحل محلها الوئام والتسامح .

٨ – حث ستة وثلاثون نائباً اميركياً الرئيس ترومان على اتخاذ التدابير العاجلة لحل المشكلة الفلسطينية واقترحوا ثلاثة تدابير :

١ – رفع الحظر عن ارسال الاسلحة الى فلسطين .

٢ – متابعة الجهود لحماية مدينة القدس .

٣ – فرض العقوبات الاقتصادية والدبلوماسية على البلدان العربية المناوئة للتقسيم .

٩ – استقال اسماعيل صفوة باشا القائد العام لقوات التحرير العربية .

١٠ – سقطت صفد في ايدي الصهيونيين .

١١ – اقترح دولة فارس الخوري فرض الحصار البحري على فلسطين لصد تيار الهجرة الصهيونية الى الاراضي المقدسة .

– انتخب البرلمان الايطالي السنيور لويجي اينودي رئيساً للجمهورية الايطالية .

– اعلنت الاحكام العرفية في مصر للمحافظة على سلامة الجيوش المصرية .

١٢ – احرزت قوات الانقاذ نصراً مبيناً في معركة باب الواد وهزمت القوات الصهيونية هزيمة منكرة .

– اقترحت واشنطن الغاء حق الفيتو لعدم مقاومة اية قضية تتعلق بتصفية القضايا السلمية .

١٣ – قدم السنيور ديغاسبيري استقالته الى رئيس الجمهورية الايطالية الجديد .

– ارسل الملك عبدالله انذاراً الى اليهود بوجوب احترام المقدسات الشريفة في القدس .

١٥ – في الدقيقة الاولى بعد منتصف ليل ١٤ – ١٥ صدرت الاوامر الى الجيوش العربية بدخول فلسطين لانقاذها من جرائم العصابات الصهيونية .

– اعلن اليهود دولتهم في فلسطين واطلقوا عليها اسم « دولة اسرائيل » .

– اعترفت الولايات المتحدة بما يدعى دولة اسرائيل . وتبعها على الاثر غواتيمالا .

١٦ – احتل الجيش الاردني مطار اللد ودمر عدة مستعمرات يهودية .

١٧ – صرح ناطق بلسان الخارجية البريطانية انها لا تعتبر ما يدعى بدولة اسرائيل في وضع يمكنها من قبول التعهدات الدولية والقيام بها .

١٩ – عقد مجلس الشعب الالماني جلسة رد فيها مبدأ احتلال المانيا وقرر وضع اسس معاهدة السلام .

– اعترفت روسيا بدولة اسرائيل الوهمية .

٢٠ – عقد ملوك العرب ورؤساؤهم مؤتمراً هاماً في درعا تناولوا فيه بالبحث تطورات القضية الفلسطينية الطارئة .

٢١ – اقتحم الجيش الاردني التحصينات اليهودية ودخل معظم احياء مدينة القدس .

– دخلت القوات المصرية مدينة الخليل .

٢٢ – وصلت القوات الآلية المصرية الآتية من الخليل الى مدينة القدس بعد ان اجتازت بيت لحم حيث اتصلت بالقوات الاردنية .

٢٤ – في الساعة الرابعة من بعد ظهر غد تنتهي مهلة الست والثلاثين ساعة التي حددها نداء مجلس الامن لوقف القتال في فلسطين .

– اكد المستر بيفن مرة اخرى للسفير الاميركي ان بريطانيا لا تستطيع الاخلال بالتعهدات العسكرية المقطوعة للدول العربية والتي تتضمنها المعاهدات المعمول بها بينها وبين بعض هذه الدول .